

فلسفة الإنسان

الفصل الأول

لا أهل و لا وطن

و لا نديم و لا كأس و لا سكن

"المتنبي"

I

يحكى أنه في زمن ما كان هناك رجل من البشر لا يعرف
لغة البشر.. كلما حاول أن يتعلم لغة لا يفهمها..
سافر الى أرض العرب فلم يعرف كيف ينطق.. ركب البحر
إلى أوروبا فاستعجم لغتها..
غادرها إلى آسيا والأرض السوداء..

رقص على ساتير الهند وبكى على نحيب ناي النيل لكنه لم
يستطع أن يتعلم أي لغة..

ظل هكذا طول عمره..

يئس منه أبوه؛ فرحل عنه، وندبته أمه..

وليس هذا عن غباء منه أو قلة جهد.. لا.. بل لأنه فقط لم

يفهم..

لقد استغلقت عليه لغة البشر تماما..

عاش مع أمه وحيدا لا صاحب و لا صاحبة.. ومن يقدر

على معاشرة رجل لا ينطق ولا يبين ولا يصدر عنه صوت إلا

كصوت احتكاك حصاتين إلا أمه

ذهبت به إلى أطباء الدنيا فلم يفهم أحد علته .

ذلك الصوت الشبيه باحتكاك حصاتين لم يوجد كعرض
لمرض في أي كتاب من كتب الطب..

أنفقت أمه بسخاء على السحرة؛ كم من عزيمة قرأت، وكم من
تمام عقلت، و أحجة ارتدت وألبست.. ولا فائدة.. فقدت أمه
الأمل

ثم آن أوانها

أوصته إيصاء كثيرا ونصحته نصحا وفيرا.. لم يفهم عنها شيئا
ولم تأمل أن يفهم لكنها – كأبي أم- كان يجب أن تتكلم قبل
أن ترحل..

لما رحلت أخذ الناس يتوافدون للعزاء.

كان جالسا بجوارها يتأمل نومتها هذه.

لم يفهم..

إنه لم يرى الموت قط.. و لم تخبره أمه ماذا يقول البشر
عن الموت

ظنها غارقة في النوم وهذا غير مألوف منها..

لما استطالت نومتها وأدرك أنها استعذبت هذه النومة

استعذابا أبديا

أصابه الهلع.. ظل يصرخ صراخا مدويا..

فزع المعزون؛ أي صوت هذا الذي يصدر من ذاك

الممسوس!!!!

كيف لأذن بشرية أن تتحمل ذلك الصوت الشبيه باحتكاك

حصاتين؟!!

هرب الجمع وولى الدبر...

لما هدأت ثورته ودفنت ميتته.. جلس تائها.. فكر بلا لغة
ماذا سيفعل؟؟؟

من سيأتيه بمأكله وملبسه بعد أمه؟؟!!

لم يجد سبيلا إلا ان يفعل مثل ذلك الرجل الذي رآه
جالسا في الطريق ماذا يده..

هذا عمل سهل ولا يتطلب حديثا.. فقط سيجلس رث
التياب ويمد يده..

جلس بجوار تلك الصخرة الملساء على أطراف السوق..
حني رأسه ومد يده

وانتظر..

هذه قطعة معدنية حمراء..

لا بأس.. إنها بداية على كل حال..

بعد فترة قصيرة ألقى أحدهم في راحته قطعة بيضاء.. جيد..
هذا مبلغ أكبر.. يعرف هذا مكان يذهب مع أمه إلى
السوق..

الأبيض يشتري طعاما أطيب من الأحمر..
لم يعرف هو أيهم أحمر و أيهم أبيض، لكنه كان يعرف أيهم
يشتري الطعام الأطيب

مر أحدهم وقال "يا له من مسكين!!" ..

فقط !! لم يضع نقودا!!

لكن..

"يا له من مسكين!!!!!!"

لقد سمعها!!!!

والأدهى أنه فهمها!!!!!!

كيف هذا؟؟!!!!!!

رفع رأسه متلهفا ليرى ذلك العابر العظيم الذي فهم عنه
كلامه!!

لما رآه جرى وراءه يستنطقه متوسلا..

"قل شيئا آخر بالله عليك .. قل"

لكن كل ما خرج من فيه هو ذلك الصوت البغيض الشبيه
باحتكاك حصاتين..

أما العابر فقد ولى مدبرا خائفا من ذلك الممسوس و لم
يعقب..

عاد إلى صخرته مبلبل الفكر كمرآة تهشمت إلى ألف قطعة
كل منها تعكس

صورة الأخرى!!!

من قال تلك الجملة؟؟!!

و كيف فهمها كأنه سمعها وقالها آلاف المرات؟!

لم يدرك تلك الدمعة التي سقطت من عينيه إلا عندما سمع

القائل

"لا تبك!!!!!!"

رباه...

من يتحدث؟؟؟؟!!!!..

من ذاك الذي أفهمه؟؟؟؟!!!!

لا أحد عن يمينه و لا أحد عن يساره!!

هذا يوم راكد في السوق .. فمن ذاك إذا؟؟!!

صدر عنه ذلك الاحتكاك مخرجا هما ثقيلًا فسمع القائل

"هون عليك"

لا .. إن هذا كثير!!!

ثم ذلك الصوت!!

إنه لا يشبه صوت البشر!!

إنه أشبه بصوت سقوط الرمل على الزجاج!!..

أصوات البشر ليست كذلك!!

أراد أن يسأل من يتحدث .. صدر عنه ذلك الاحتكاك

مرة أخرى وهو يعلم أن أحد لن يفهم ما يريد أن يقول لكن

القائل قال " إنه أنا"

إذا فالفهم متبادل ..

هذا الذي يتحدث يفهم ما يريد أن يقول عندما تحتك

حصاتا

حنجرته ببعضها!!!

مرحى..

هناك من يفهمني وأفهمه

بقي شيء صغير .. من هو؟؟؟

"أنا بجوارك ..إسمي قيثارة"

وعندما التفت إلى مصدر الصوت لم يجد سوى الصخرة

بجواره!!!

وهنا أدرك سره المغلق..

إنه يفهم لغة الصخر!!!



قيثارة..

ما أروعه من اسم!

صحيح أنه لم يفهم معناه .. لكن هذا لا يهم..

إنه يفهم و يفهم..

يالاه من شيء رائع ذلك الإحساس المختبر لأول مرة كشرية

ماء في جوف الظامئ اليأس..

احتضنها ناثرا فرحته في سرايينه وحبات رملها .. لو لم تكن

صخرة لا عتصرها الحزن..

"حسن قيثارة ..انا..."

لكن من هو؟؟؟

إنه لم يعرف له اسما قط ، أو -إن شئنا الدقة- قلنا لم يعي له
اسما قط

"أنت عازف...."

احتكت حصاته متسائلا فتساقطت رمالها تجيب

" لقد عزفت عن البشر و ركنت لي .. أنت عازف "

راق له الإسم ... على الأقل أصبح له اسما وإن كان البشر

هم من عزفوا عنه ..

" عازف إذا "



II

نيران و ليل

الليل يصب مزيدا من صبغته السوداء على الكون ، و

النيران تقاوم صبغة الليل باستماتة

و أصوات الأقدام التي تضرب الأرض و تثير النقع تتحالف

مع الليل فتزيد الظلام ظلما حتى تتساءل النيران عن

جدواها .

و هو يجري..

يعرف أنهم خلفه..

و أنهم به لاحقون لو توقف ثانية واحدة يستجدي نفسا

لصدره المثقل المحروم.

الآلم ينخر في مؤخرة عنقه، ودماءه تفر هاربة منه.

حتى دمائه تنفر منه فلم لا ينفرون هم؟!
لكنه يهرب.

حياته المقيتة عديمة الجدوى سيئة السيرة و التاريخ ما زالت
تهمة و إن لم يعترف بهذا؛ و إلا فلم يهرب؟

الألم..

البرد..

الخوف..

و الإرهاق..

تحالفوا مع مطارديه فهم جاثمون على صدره العاري المبلل
بالعرق و الدم

ربما لو اختبا هنا لضلهم.

لكن لا

ها هو يسقط في هاوية لا يرى لها قاعا

ثم ها هو يفز من نومه فزعا

اللة عليك أيها الكابوس

في كل أصدقاء السوء الذين مروا به ليسموا روحه كان

هذا الكابوس أسوأهم و – للأسف- أبقاهم

تحسس الجرح في مؤخرة عنقه و تهد

ما زال الألم يوخزه كضمير مثقل استيقظ للتو في قلب

شيطان آثم

أي حياة هذه تلك التي يحياها؟!!

إنه لا ينام

و إذا جاد التعب عل عينية بسنة خفيفة ؛ نغصها الألم ، و
أيقظه كابوس

اعتدل جالسا على فراشه و نظر إلى باب كوخه الحقير

ما زال الليل يراقب الساهرين

ما زالت ظلمة روحه تغشاها ظلمة الكون

ظلمات بعضها فوق بعض ترمي ثقلها على كتفيه

ما زالت تلك الدقات تتتابع بالخارج كأنها تهدده

" ترى هل ما زالوا يبحثون عني ؟ "

" هل عرفوا حقيقتي ؟ "

و ترد تلك الدقات بالخارج

" عد للنوم ؛ أنت لست هناك و هم ليسوا هنا بعد "

يتمدد على ظهره فيركله جرحه متأففا

يتقلب على جانبه الأيسر فتصرخ ضلعه المكسورة التي لم

تلتئم بعد

فيعود لينام على جانبه الأيمن.

ما زال ذراعه يؤلمه من طيلة النوم عليه لكنه الألم الأكثر

احتمالا

يغمض عينيه و يحلم ألا يحلم

فقط ساعتين .. ساعتين ينامهما دون كوابيس و ألم

و ليأتي الصبح بعدها بما يشاء



صاڑ اسمه..

مهاجر هو من بلد تنكره إلى بلد ينكرها

كل ما يریده هو ألا يكون هو

أن ينسى كل ما مضى من عمره و يبدأ كطفل

لذا تخفف في حمل سفره من كل تاريخه و قرر أن يصنع

لنفسه تاريخًا طازجا في مكان آخر.

لقد سَم من كونه طريداً منبوذاً

و كأي بشري كان يطمح في شيء مختلف

و على أطراف البلدة بنى كوخه ؛ يؤيه ليلاً و يخفيه نهاراً

خلف كوخه هذا أرض صغيرة طيبة غرس فيها بعض

البذور

و بينه و بين أرضه نشات علاقة صادقة كانت هي العلاقة
البريئة الأولى في حياته

دوما كانت علاقاته نفعية منافقة و لم يكن هو الطرف
المستفيد في أي منها

حتى أمه و أبيه

أو ما اعتاد أن يناديها بذاك

و عندما تعطي الشمس ظهرها لدنياه ؛ يعطي هو ظهره
لكوخه و يجلس أمام أرضه صديقه يتحدثها عن شجونه

" صديقتي الطيبة

كانوا يقولون لي فيما مضى " أيها اللقيط " ، و لم أكن أعلم

معنى ما يقولون و ظننته مرضا أو عيبا في وجهي خاصة

عندما كانوا يشيرون إلي و يضحكون أو يتاففون مني و
ينصرفون لأنتي - بعد الشر عنهم - لقيط

و كنت أذهب إلى تلك المرأة_ التي أمرتني ألا أقول لها
أمي إلا أمام الناس _ و أسالها " سيدتي ، هل يمكنني أن
أذهب إلي الطبيب ؛ إنني أشعر أنتي لقيط . " فكانت
تصفعني و تصيح بي " صه يا لقيط " .

كان مذاق الدم في فمي سيئا لكن الأسوأ كان معرفتي أنتي
لست مريضا ؛ لو كنت مريضا لما صفعتني أم ... سيدتي ؛
كانت ستتأفف أو تخشى العدوى ..

تجمعت في عقلي مرادفات كثيرة لكلمة لقيط ، مرة ظننتها
تعني خادم ، مرة تعني غبي ، و مرات تعني متنفس لغضب
أمي أو ممسحة لخطايا أبي

و في كل مرة كانت تعني متهم

لكنني لم أدرك أسوأ معانيها إلا مراهقا ؛ حين علمت أنها

تعني أنتي بلا أب و لا أم

كلب عثر عليه أحدهم ملقى على جانب الطريق فأواه متأففا

مشكورا !!

تعرفين يا صديقتي الطيبة ؛ ما زلت أتساءل حتى الآن ما

الجميل الذي فعلاه معي حتى أدين لهما بشيء ؟!!

أنا لم أطلب منهما أن يأوياني عندهما ؛ فلماذا أَدفع ثمن

بضاعة لم أشتريها خاصة وإن كانت فاسدة ؟!! "

يتسلل القمر خلف ظهر الفتى متأملا في حسرة فتوته و

قوامه الممشوق و هو يقف مناجيا صديقه الطيبة دون

صوت

" لقد أفسدوا روحي و حياتي للأبد و لا عودة .. جسدي
ملوث بخطاياهم و لا أجد عين ماء أتطهر فيها من نجسهم "
يرفع الفتى وجهه تستقبله أيادي القمر الفضية الحزينة تحاول
أن تمسح عن خديه دموعه فتفشل لتلتصع دموعه على وجنتيه
غضبا و نفورا من نفسه و مصيره ، فيدخل كوخه عالما أنه
على لقاء مع ذلك الكابوس المخلص بينما الدقات تتعالى في
الجانب الآخر من النهر

و عندما تتوقف تلك الدقات يعلم أن الشمس قد حنت
إلي ذلك الجانب من الأرض
إنه يكره الصباح
و لم يجبه ؟

مذ كان غض العود أخضره والصبح يأتي له إما بالمشقة و
الذل أو السخرية و الإهانة والدفع في الطرقات
الليل أجمل

الكل ينساه ليلا فيعود بشري من جديد بعد ما كان عبدا
لقيطا في الصباح

لكن الصباح قد حط رحاله على باب كوخة ، و عليه أن
يفتح بابه لزائر كل يوم

لماذا تتوقف الدقات صباحا ؟

لا يعرف و لا يابه

لقد اعتادها ليلا وأضحت تهدد عينيه و تثقل جفنيه

جعلته ينام

و هذا جميل يحمله في عنقه للأبد

أما ما هي هذه الدقات ؟

فالكل في القرية يعلم

إنه قلب الساحر على الجانب الآخر من ذلك النهر الصغير
على اطراف البلدة

إجابة تحتاج إلى إجابة

لكنه لا يآبه

هل هي هنا منذ الأزل ؟

لا

متى سمعتها البلدة أول مرة ؟

لم تكمل عامها الأول بعد

كان الكل يخافها خوفهم من الساحر نفسه و جعواوا ضفة
النهر التي تأتي منها أرضا محرمة ملعونة و من يطئها فهو منبوذ،
لكنهم الآن اعتادوها حتى أضحت المنظم لوتيرة حياتهم

و هو لا يآبه

لكنه يسمع

كلما تحدث معه بائع البذور لا يجد أمامه إلا أن يسمع

هذه أول خطوة في طريق بعده عن الوحدة و النبذ

كان يسمع لكنه لم يكن يستمع

طوال عمره يستمع إلى ما يقوله الناس و لا يستمع له أحد

و قد ضاق ذرعا حتى تمنى لو كان باستطاعته أن يغلق

أذنيه عن أصوات البشر

ما أقبح لغة البشر و أصواتهم !!

ليته لم يعرفها قط

لكم تمنى أن يُسمع بدلا من أن يسمع

أن يدخل صوته أجساد الآخرين بعد ما تشبع جسده

بأصواتهم

لذا كان يجب أرضه

أذن طيبة هي

يغرس فيها بذوره و كلماته ؛فتخرج ثمارا و حب الحصيد

جميلته السمراء طيبة الأثر

"صديقتي الطيبة

هل تستمعين لي لأنه لا حيلة لك في ذلك، أم لأن منزلي

عندك هو منزلك عندي . أتمني أن تكون الثانية ؛و أنا لا

أمن عليك يا صديقتي الطيبة لكني لم أفعل معك سوى الخير

؛ وجهك الكالح المكفهر الذي قطعته الشمس بسكين حرارتها ؛
أنا من عاج جروحه بمائي و فآسي ؛ فلتمتني لي إذا و تصيرين
لي إذنا تسمع فلا تمل و فما مغلق على أسراري فلا تفصح و
لا تفصح

هل تعرفين الرجل الذي أشاع سر الملك ذو أذن الحمار ؟
لم يتحمل الرجل ثقل السر فهمس به لأرض مثلك .. هل
ستكونين مثلها و يخرج ثمك سري للناس كلما هب النسيم ؟
أعرف أن أذن السلطان شفيت بعد ما فصح سره ، لكن
الأرض ظلت فضاحة و أنا أربأ بك أن تكوني فضاحة.
ثم من أنا في تلك الحكاية ؟ هل الملك ذو أذن الحمار أم
كاشف السر أم الاثنين ؟

أنا صاحب السر و كاشفه ؛لذا لا أظن أن مرضي
سيشفي إذا أعلن ثرك عنه للناس
ليتني أفهمك يا صديقتي الطيبة !

ما أسعدني لو أني أتحدث لغة الصخر فأفهم همهمات
حصواتك لبعضها إذا أسرت لك سرا .. أو أعرف هل ذلك
الحفيف ليلا ضحكا مستخفا بفضفتي لأنك شهدت ما هو
أقسى أم هو نحيب على حالي و مآلي لأنك لم تشهدي ما هو
أقسي ، كلا الإحتمالين كرهه ؛ فالأول مهين و الثاني بائس لا
أمل فيه و لقد سئمت الإهانة و البؤس . "



عجبية تلك البلدة!
أليفة ، وليست مألوفة

مثل بلدته القديمة، و لاشيء فيها يشبهها.

عجبة!!

أهلها عاديون، و أرضها ليست عادية.

بها نهر صغير، و لكن مياهه عذراء لم يطمثها بشر

كان فيها ساحر، و لا سحر فيها

لكنه - لسبب لا يعلمه إلا خالق تلك الأرض - تعلق بها

تعلق بكوخه فهو له كذراعين تضمانه إذا توحش برد الليل

و استعر زهريره

تعلق بأرضه؛ صديقه الطيبة التي لا يعرف لغتها لكنها

تعرف لغته و تسمعه و تطيعه

تعلق بتلك الدقات على الجانب الآخر من النهر كمنبه
معكوس يعيد حياته لسياقها فهو زارع لأرضه نشطا نهارا ..
طفل في حضان كوخه ليلا

حتى بائع البذور تعلق به ؛ ما زال لا يستمع له لكنه أضحي
يجب سماعه

هو أول بني البشر الذي يحادثه كأنه من بني البشر ؛ إذا
قص عليه قصة من تاريخ البلدة، أو غمز له غمزة عندما تمر
فتاة مليحة أو مشتر يفاصله في سعر الغلال تبسم صادق و
شعر أنه - نوعا ما - أدمي

وكان يخشى ذلك

صحيح أنه لا يريد أن يكون منبوذا منفرا ، لكنه كان يعلم
أن أول طريق النبد و النفور هو أن تتعلق بمن لا يابئه لك

و من في البلدة يأبه له ؟

بائع البذور !!؟

إنه يأبه لقروشه التي يضيف عليها صادق قروشا

يأبه لتجارته التي لن تكسد طالما صادق هنا

يأبه لما يجنيه من صادق ليس لصادق نفسه

لكن قلب صادق - و برغم كل هذا - قد تعلق به و

ببلدته

لقد جاهد في إقضاء نفسه

أراد أن يكون متخليا عن الناس نابذاهم و لو لمرة في

حياته ، و كان يظن أن كل ما سبق يستطيع هو أن يقاومه و

يعادله

إنه لا يحتاج إلى البشر

عازف عنهم

و لن يأتي ما يثنيه عن عزوفه أبدا



و تطرح أرض الليل ثمارها الوضياءة

يراقبها القمر، كراعي غم يخشي ذئب النهار الشره

و الدقات تتعالى على الجانب الآخر تعلن أن الأحلام في

الطريق إلى أسرة النائمين فتهيأوا لها

و يسمع صادق دقات أخرى على بابه

لا

ليسوا هم ..

رباه .. ليسوا هم

لكن..

إنها يد واحدة، و ضعيفة أيضا

لما فتح الباب وجدها

كيف جاءت إلى هنا؟!!

لا يعرف

ما الذي أصابها ؟؟

لا يعرف

كل ما يعرفه الآن أنها مشكلة وأنه في ورطة

ذاكرته بها مشهد مماثل لم ينجو منه

ظل يتأملها غير فاهم

كانت ملوثة بالوحل ، مرهقة ، ممزقة الثياب

و جميلة...

ذلك الجمال الذي يرقى فوق مستوى الشهوات

جمال تشعر معه أنك نقي

جمال يغسلك

و كل هذا سيء

إنه ذلك الغريب مجهول الأصل و التاريخ والملقى على بابهِ
حسناً مذبذبة الحال؛ فما قول الآخرين في هذا سوى أنه فعل
بها شيء!؟

لذلك استدار ليدخل كوخه ويغلق بابهِ

إنه لن يمر بهذ اثنانية

لكنها تعلقت بثيابه

جالسة على الأرض خائرة القوى ممسكة بيد صغيرة منهكة
طرف ثوبه تستنجد به

وتلك النظرة في عينيها جعلته يدرك أنه لن يتركها



الفصل الثاني

إذا مت ظمانا فلا نزل القطر

"أبو فراس الحمداني"

I

وأصبح عازف لا يفارق قيثارة

أخذها معه إلى منزله .. وضعها في ركن ظليل ينثر عليها

الماء البارد من حين لآخر ؛ تلك العزيزة الصماء لا يجب أن

تتشقق ، يجب أن تبقى ما كتب له البقاء

إذا ذهب ليعمل – إذا سمينا عمله عملا – أخذها معه ..
يريح يده عليها ليسمعها، ويفهمها، و يريح ظهره عليها ليستريح،
ويريح رأسه عليها لينام

أصبحت مركز دوران حياته

يراه الكثيرون يهمس لها، يربت عليها، يغمزها ويضحك
؛ فيحثوا سيرهم ولسان حالهم يستعيد من المس
كسدت تجارته من خوف الناس منه فذهب إلى سوق
آخر لا يعرفه فيه أحد..

يجمع ما يتساقط في يده من نقود يشتري به طعاما ثم
يحمل قيثارته ويعود لمنزله حيث يتعالى همسها و تحتك
حصاتاه بجبات رملها وزجاجها و هو يعيد عليها ما مر به من
طرائف .. حتى يقرع القمر أبواب النعاس فيفتحها مشتاقا.

و يضع عازف رأسه عليها ويغمض عينيه فيرى فيما يرى
النائم يدها و قد نبتت لها تربت على رأسه فينام في حلمه
نوما هنيئاً ويحيا في واقعه حلما جميلاً..

حتى أتى ذلك اليوم حن استيقظ على عينيها..

إنها مجرة كاملة

نجمة هنا، ونيزك هناك، وشهاب يصيب قلبه ويحيله كوكبا
دوارا في فلكها

تلك القطعة النقدية التي ألقته في يده كانت بخسة جدا ...
رفع عينه ليرى من تلك البخيلة فجادت عليه عيناها بنظرة
قلبت سكون حياته ضوضاء

بشرية هي ... لكن أثرها في نفسه كان شيطانيا

لما رحلت رحل فكره معها فعاد إلى منزله شاردا

ونسي قيثارة

ظلت تناديه لكنه قد سحب يده عنها فلم يسمعها.

حتى جاء نومه فلم يجدها؛ فذهب متأففا أرقا

خرج عازف ليأتي بها فوجدها حيث تركها لكن ليس كما

تركها

لقد نبت في جانب منها شقا

تلبسه الجزع

اعتذر آلاف المرات واختلق آلاف الأعذار، ولم يذكر ذات

العيون الكونية أبدا

ولم تغضب قيثارة

فهمت أذاره وقدرت اعتذاره وذهبت معه إلى داره

ونام عازف

ورأى فيما يرى الحالم ثعبانا يخرج من شق قيثارة فتقلب
فزعا و نهض من نومته ينظر لقيثارة خائفا ..

لما رآها ساكنة و الشق قد تضاعل حجمه في عتمة، الليل
نفض الخوف عنه ونام يحلم بيد تربت على رأسه

يد أخرى لا تنبت من الصخر

يد تنبت من عينين فضائيتين تحملان الكون في سوادهما
واستيقظ من نومه ولم يستيقظ من أمله في أن يراها ثانية.
وبالطبع لم يرها..

كانت تلك المرة الأولى التي يرفع فيها عينيه في وجوه المارة
؛لربما يضربه الشهاب مرة أخرى فيستريح ،لكنه لم يحدث

ولم يحدث في اليوم الذي يليه

ولا اليوم الذي يليها
لكنه حدث في اليوم الذي يليهم
أن يهوي قلبك بين أضلعك فيسقط في لجة من المشاعر
هو مفتون، ومذهول، وخائف، ومرتبك، ومتجري
ظل يتطلع إلى عينيها على يرتوي فازداد ظمئا..
زاده ظمأه تجرأ فتبعها إلى منزلها
تبعها ونسي قيثاره للمرة الثانية



II

الدقات تتعالى اعتراضا على استيقاظ أهل البلدة
و أهل البلدة عنها لاهون

النيران و الليل

و الناس قد تجمعت و قد اتفتت عيونهم على الغضب

الكل يبحث عنها و لا أحد يجدها

ها هو كابوسه أمامه و لا يعرف كيف يتصرف

لقد قالت له أن أيها هو ذلك الحاج الطيب حسن السيرة

إنه يعرفه

لا أحد في البلدة يجمله ، و لا أحد يضمه له شرا؛ فمن فعل

هذا بابنته؟!!!

" لا أحد .. لم يفعل أحد بي شيئا .. فقط لا تخبر أحدا

أنتي جئت من عند قلب الساحر "

اللعنة

مصيبة هي تحمل في سرها مصيبة ، و عليه هو أن ينقذها

ينادي و لا يسمعه أحد

" هي معي "

لا أحد ينتبه

أنت ملعون يا صادق

كابوسك صار حقيقة، و ما زلت مهمل ملقى على جانب

الحياة لا يلتفت إليك ملتفت

صاح غاضبا

" إنها معي "

و ساد الصمت

أدار عينيه فيهم

منهم من لا يعرفه و منهم من لا يجله ، منهم المتشكك و
منهم المتحفز
لا أحد بجانبه
وحده كالعادة

هذا الشعور المألوف جعله - للعجب - يستجمع قواه و
شجاعته

" أنا أعرف مكانها فاتبعوني "

لوهلة لم يحرك أحد ساكنا كأنما غشي عليهم و لم يفيقهم إلا
صوت أحدهم مناديا والدها

النيران و الليل

و أهل البلدة يتبعونه متقدما هو مسيرتهم إلى كوخه

الآن الكل يعرفه

و بعد قليل سيعرفون مسكنه

مرحى يا صادق

لم تعد منبوذا

هأنت تقود بلدة لا يعرفك أحد فيها لتنقذ فتاتهم

أنت الآن في عيونهم بطل شهيم، و شاب خير

مرحى

على باب كوخه كانت هي على حالها

صاح أبوها " أتركها هكذا ؟!! "

كن شاكرا يا رجل ؛ لقد كنت على وشك ألا افعل شيئا

لولا عينيها

عينيها !!

ترى هل هي تنظر له الآن كما نظرت له أول مرة تستنجده

لا .. لقد اغلقت ذلك النبع الذهبي بأهدائها المنسوجة من

خيوط الليل

نفض صادق عينيها عن فكره و أجاب

" هي حيث وجدتها ، لم أمس منها طرف ثوب أو خصلة

شعر ، و إن كنت قد جئت أنت لتجدها في كوشي على

فراشي و هي على حالها هذه فهل كنت ستسعد و يطمئن

بالك ؟ "

كان فظا

و فكر الحاج الطيب " إنه أرض بكر لم يهدبها محراث

الخلق ، لكنه أمين و لا يريد أن يساء الظن به "

و انحنى الرجل يحمل ابنته المغشي عليها و هو يتمتم

"زهراء .. يا عطر أبيكي أسمعيني؟"

همهمت الفتاة فنظر الحاج لصادق و تبسم شاكرا ممتنا

حتى ملامحه طيبة

و أدهش صادق أنه وجد نفسه يتبسم لتبسم الرجل و

طيبة محياة

الحاج الطيب

إسم على مسمى

ليت اسمه كان على مسمى أيضا

مضى الرجل حاملا بنيته و خلفه من تبعه من أهل البلدة

يتابعهم صادق ببصره و هم يدخلون بوابة الظلام مرة أخرى

فلم يعد يراهم

و تذكر تلك المليحة ذات الجمال النبيل

" إذا فاسمها زهراء !! "



الشمس تشرق في الكون مرة
و على كوخه سطعت الشمس مرتين

مرة في السماء

و مرة على بابه

تقف و تبتم

" صباح الخير "

صباح الخير بالفعل

أبدا لم يحب الصباح

لكن هذا الصباح .. صباح خير

تخللت أشعة ابتسامتها خصاص روحه المغلقة فتهد منتعشا

"زهراء !! "

لما تهد اندهشت ؛ فارتبك ؛ فارتبكت ، ثم نجلت

فاطرت

متظاهرا بالغلظة مغلفا بها ارتباكه صاح " ماذا جاء بك الى

هنا ؟؟؟!! إذا رآك أحد ... "

قاطعه هامسة في خفوت حيي

" إن أبي يدعوك في دارنا اليوم عصرا .. "

قالتها و مضت

ووقف هو يفكر فيما دهاه

و لم الرجل دعاه

ربما ليكافئه جزاء ما فعله معها

لكنه لا يريد أن يراها

لا يجب عليه أن يراها

لقد رآها مرتين فقط ، وقد تبعها في أولهما دون مقاومة

حتى عندما كانت مهشمة موحلة

حتى عندما كانت البلدة كلها تتبعه

حتى عندما سئم كونه تابعا

و الآن ..

برغم غضبه من نفسه و غيظه منها ؛ سيتبعها



و كانت الهدية الحرمان

هذا كل ما حمله معه و هو عائد من بيتها

ذلك الدفء هناك أخبره كم هي باردة حياته

تلك الألفة لم تمنح راحة سوى الوحشة

تلك الضحكات لم تشرح له صدرا و لم ترح له بالا ، بل

زادته هما على هم

لما مضى عائدا إلى كوخه و دنياه التي ظن أنه اكتفى بها

؛ أدرك أنها لا تكفي أحدا

إنه محروم

محروم من كل ما لديها

لا أب .. لا أم .. لا دفيء .. لا ألفة .. لا أحد .. لا شيء

لقد كان يظن أنه عازف عن البشر
الآن أدرك أنه كان تواقا إليهم
أو - بالأحرى - تواقا إلى ما لديهم
و عطر أيها تلك تملك كل ما لا يملكه
عندما وصا إلى بيته لم يدخل كوخه
كان بحاجة إلى أن يخاطب صديقه الطيبة
على الأقل لا تملك تلك الفتاة صديقة كصديقه
" صديقتي الطيبة ..

لقد سئمت الغصص ..

إنها تتزاحم في حلقي فلا أعلم أي مرارة أتذوقها ؛ أهو اليتيم
، أم النبذ ، أم الطرد ، أم الحرمان ، أم ذلك كله ..

عندما كنت في بيت ذلك الحاج الطيب ازددت غصة
اخرى ؛ الحاجة .

أي فقير معدم أكونه أنا ؟

و لا أتحدث عن غنى المال ؛ فأنا عنه متعفف ؛ لم أشتهي
يوما طعاما فاخرا و لا لباس شهرة، بل أنا فقير إلى البشر ،
لا أملكهم و لا أملك أي شيء لديهم

و لم أنا ؟

لم انا بالذات من قدر له أن يقف على باب الحياة يرمق
زخرفها و لا يمسه ، أرى الضحك فلا تنفرج شفتاي ، أرى
الحنان فلا تدفني لمستته
لا حي أنا و لا ميت

لا الحياة تريدني أن أتزود منها أو أرشف منها سوى
قطرات يقمن صلب أنفاسي، و لا الموت يدعوني إليه فأفترش
قبري ساكنا كأي لم أكن
و لقد سئمت هذا كله

تلك التي هي عطر أبيها ليست بريئة كما يظنها الآخرون ؛
إنها تذهب حيث حرم الذهاب ، فلم تذهب هناك ؟ و هل
تكون وحدها أو يصحبها أحد ؟ و من سيكون هو ذاك
الذي يصحبها إلى هناك إن وجد ؟

أنا لن أحيا محروما وحدي وغيري لديه كل هذا و هو لا
يستحقه ، أليس هذا هو العدل ؟؟



" صباح الخير "

" صباح الخير "

و الكل يتسم في وجهه

الكل يعرفه اسما و صفة

هو ذلك الشهم الذي أنقذ درة البلدة و قره عينها

و صادق يتسم في وجوههم ، لكن بسمته لنفسه

انت الآن يا صادق من يسعى إليه الناس

مبارك عليك يا صادق

" صباح الخير "

و تطل الشمس ثانية أمام ناظره تعيد تفكيره ثانية في

كرهه للصباح

" صباح الخير "

و هي من تقولها

عطر أيها

تلك التي كان بالأمس يث أرضه حقه عليها و مقته لها ،

هي الآن تقف أمامه تشع ضياءا يربكه

" صباح الخير ،زهراء "

" أضحي مرآك في البلدة عادة !! "

" هه .. نعم ، لقد صرت من المشاهير ، و الفضل لك "

" بل الفضل لك ؛ ما كنت أنا هنا اليوم لولا شهامتك ،

أنت من فعل هذا لا أنا "

" و ما أدراك ؟؟ ربما كنت أنقذ نفسي "

"أنقذت نفسك فأنقذتني ، و الآن انظر حولك ترى

حصاد فعلك "

" حصاد فعلي يقف أمامي و يبتسم، هذا أجمل من كل ما

قد أراه حولي "

و هنا نفسه ثانية

تلك الحمرة في خديها تعني أنه أصاب هدفه

أحسنت يا صادق ؛هئنتنا تمضي في طريقك

لكن لماذا يحس أن مغالته لم تكن كذبا كلها

تأمل إطراقها و خجلها و تبسم

لم تكن كذبا على الإطلاق

لكن لا ضير

كذب أو لا ، لقد رمى سهمها فأصاب و هذا هو المراد

عاد إلى كوخه راضيا

لقد كسب اليوم الكثير

باع أرضه

ذاع صيته

و أصاب هدفه

إنه يوم سعد لم يحظ قط بمثله

و كما اعتاد ألا يخفى عن صديقه سرا ؛هرع إليها

" باركني يا صديقتي الطيبة ؛أنا اليوم سعيد راض

لا أذكر أنني كنت سعيدا راضيا في يوم من الأيام

إنني أعجب أصلا أنني أعرف معنى الكلمتين

لكني كذلك

و لك الفضل في ذلك

زرعك الطيب مثلك يعجب من يراه و يشتهيته

و اليوم الناس أقبلت علي محبة مهتمة

تريدني قبل أن تريد مني ، و لكم أحببت ذلك

همساتهم عني اليوم لم تكن " من هو ؟! " بل كانت " إنه

هو! "

ثم تاتي هي

عطر أيها

قرة عين البلدة و درة غنواتها

وضاءة هي كالشمس ، لكنك تخشين النظر للشمس و لا
تخشين النظر إليها

مشرقة هي .. ضاحكة .. سعيدة .. تنير الحياة من بين
أصابعها متصدقة بها على الموتى الأحياء مثلي
تبا لها

حتى عندما أردت أن أوقع بها لم أكن واثقا من أوقع بمن ،
لكني على عزمي ماض
لا هناء لي فلا هناء لها

و من بعيد تنادي دقائق الساعة على الساهرين أن " كفوا
أصواتكم قد آن أوان صوتي " فيغمض الكون عينيه متراخيا
و صادق ما زال يسامر أرضه مؤتئسا بها
" صديقتي الطيبة

لقد التّم الجرح في رقبتى و ما زال نومي يأنف مجاورتي
فلم ؟

لقد كان يومي جميلا هائئا ؛ لم يؤذني ألم و لم ينغصني جوع
، فلم الأرق ؟! ، و ما الذي سلط علي السهاد فإذا هو
يلزمني كاسم لا صفة لي فيه

الضمير تقولين ؟؟؟!!!

أي ضمير يا صديقتي الطيبة ؟!

لقد خلقت من دونه كوعاء مشروخ لا يحوي خيرا و لا
يحمل شرا و لا فارق لديه بين الاثنين فكلاهما يتسرب خلال
ذلك الشرخ ؛ فينفر الناس من الشر و يتحسرون على الخير
و يلعنون ذلك الوعاء الذي لا نفع منه و لا اتقاء لشره .

أي ضمير يا صديقتي الساذجة ؟!

أراك تذكريني بها ..

حسنا .. إنها لا توظف ضميري إن وجد ، بل مرآها يضم
ضميري المتخيل هذا إلى صفوف كراهيتي و تقززي .

أراها الآن كما رأيتهأ أول مرة ؛ ممرغة بالوحل مهلهلة الثياب

لا درة و لا قررة كانت

و هذا ما يجب أن تكونه دوما

و ما ستكونه يوما ما ؛ علي يدي

أيا صديقتي المسكينة

إن لي نفس خبيثة ، ظلت تشتهي و لا تحوز مما اشتتهه

شيئا ؛ حتى توحشت فصارت تشتهي ألا يحوز غيرها مما لا

تملكه هي شيئا

و قد دان لها ما أرادت و اشتتت حتى أنها صارت تمد
ذراعها إليه تنزعه نزع الروح من جسد كافر .

أتريدان لها القناعة و السكون الآن ؟؟؟ !!

أيتها المسكينة الساذجة !

إن الوحش إما يفترس أو يموت

أرايت يوما ضبعا يأنف جيفة او أسد جائع قد نوى اليوم

صوما فإذا هو محجم عن نهش لحم غزال غاف ؟

لا

هكذا نفسي ..

ضبع لا يأنف و أسد لا يصوم

و هاهو الغزال أممي غافيا ، سأقتنصها كأسد و ألتهمها جيفة

كضبع

أيا صديقتي المسكينة ، لكم أشفق عليكم
قد ألقاك قدرك أمام هذا الصديق و لا حول لك و لا قوة
لكن لا بأس عليكم و لا خوف ؛ طالما أغرس فيكي سري و
بدوري ، فلا تخرجين إلا الثمر و يظل السر غافيا بأحشائك
الطيبة .

أيا صديقتي الطيبة
لقد أرحتني بالحديث و أثرتني نشوتي بخيالات لا ترضي
سوى وحش جائع مثلي
فلك الشكر و نوما هائئاً لي و لك



الفصل الثالث

و من يخطب العلياء لم يغلها المهر

"أبو فراس الحمداني"

I

لما عاد عازف إلى بيته كان معه شيئان
جوعه ، وخيال تلك الحسناء ذات العيون الكونية
ولم يكن معه شيئان
فكره الذي تركه على عتبة بيتها حتى يعود له غدا ، وقيثارة

ولما نام لم تنبت أياد و لم يربت على رأسه أحد .. لقد أرهقه
الفكر حتى أن أحلامه نامت معه..

صباحا عندما امتدت يده تركز على قيثارة كان لوقع الرمال
على الزجاج شكلا آخر

"نسيّني بالأمس .. افتقدتك"

"أوتفتقدين أيضا ؟؟"!!

كان هو يفتقد مجرته التي جذبته إليها ثم تركته بلا مدار
حتى أنه لم يدرك الاستخفاف الذي أنتجته حصاته..
بمجرد أن جمع من المال ما يشتري به ملء بطنه هم ليذهب
إليها..

قالت قيثارة " هل ستنساني ثانية ؟؟"

"لا .. لا أريد أن أكون وحيدا هذه الأيام"

في طريقهما الى المنزل قص عليها كل شيء .. لم تحتك
حصاته ببعضها من

قبل كل هذا الاحتكاك .. ربما لهذا السبب كانت النيران
تتقد في صدره وهو يتكلم..

"هون عليك يا عازف .. من يدري ؟ ربما تاتي هي إليك "

إن لصوت سقوط الرمل على الزجاج وقع محبب خاصة
عندما تكون حبات الرمل خفيفة وقليلة .. كأنها قطرات مطر
خفيف على نافذة بلورية ..

لكن من كان عقله فوق السحاب كيف سيدرك صوت

المطر؟

كانا قد وصلا عندما قال " أنا أضال من في هذا الكون
شأنا .. لا أتكلم لغة بني جنسي ولا افهمها .. إن حروفهم تنزل

على أذني كما يرى الرامد في الضباب؛ خيالات وأطياف .. تقع
الكلمة على أذني فتهشم حتى الحرف الواحد يتكسر ، فإذا
جمعتها صارت مسخا غبيا فإذا نطقت ما تجمع وضع الجميع
أصابعهم في آذانهم تأففا .. متسول أنا .. ألا ترين هياأتي ؟ ..
كيف لزجاجة عطر أن ترغب في مجرور ؟ انظري إلى بيتي ..
بيتي!! .. إنني إهين الكلمة إذ أنا وصفت بها هذا الذي أسكن
فيه .. انظري .. ولكن أنى لك أن تنظري ؟ .. أين عينك
لترين أي شيء ؟ .. لا عين ، ولا أذن ، ولا قلب .. صخرة أتني
فما أدراك بقلوب البشر ؟ ؟ " !!

تكلم كثيرا عازف .. تكلم وتعصب وتحرك كمن جريح
يتحرش بمن جرحه...

تلك الغضبة أنسته ركن قيثارة الظليل ونثرة الماء التي
اعتادتها..

ولما خرج لم يكن للبيت صوت سوى صوت طقطة الشق
الذي ازداد عمقا...

ولما وصل إلى بيتها كان القمر قد نسي مهمته فلم يسطع ..
والنجوم تبتت قائدها..

نام أمام بيتها يستجدي حلم يدها و هي تربت على رأسه
لكن مثل عملتها البخسه كانت أحلامه..

أخذ يقلب في أحلامه عله يجد ما يطيب نومته فلم يجد
،بل لقد كشر الثعبان الذي خرج من شق قيثارة عن أنيابه
ففر نومه هاربا..

أي حلم هذا؟؟!!

فلتغمض عينك يا عازف لا صحخور هنا ولا ثعابين .. هنا
منزلها الذي في السماء .. هل توجد ثعابين في السماء؟؟؟

هل فتحت عينيك يوماً لتجد الشهب تتجمع حولك
وتبتسم؟؟..

هكذا فتح عينيه صباحاً

هل رفعت بصرك مرة فرأيت الشمس تبرق على ثغر
احمر؟؟

هكذا رأى لما رفع بصره إليها

هل حاولت أن تتكلم فاحتكت حصاتان في جوفك
فأغلقت فمك مدعوراً؟؟

هكذا فعل

لكنها لم تتأفف

لقد ضحكت

قالت كلمة ما وهي تشير إليه وضحكت

وكأنه لم يكن مفتونا بما يكفي لتأتي ضحكتها تربط على جيده
حبلا من الوله محكم

تجاوزته هي ومضت ولم يتجاوزها
تابعها ببصره وقد انعقد العزم باوتار قلبه
هي له ولا احتمالات أخرى



"قيثارة ... أريد ان أتكلم لغة البشر" ...
"عازف ... انثر بعض الماء علي إن الشمس قاسية اليوم"
" ألا تفهمين ؟؟ ..أقول لك أريد أن اتحدث لغة البشر"
"وكيف ذاك؟؟؟"

" لا أدري .. لكنني لن أستطيع أن أتركها .. لقد تعلق
قلبي ولا حل سوى أن تكون لي "

ثم ساد الصمت

الأفكار في عقل عازف تتداخل في بعضها لتخرج شيئاً
واحداً.

"لن يحدث"

وتترد الكلمة في أرجائه فيدوي صداها ضاربا جدران قلبه
في قسوة

وضع ذراعا فوق ذراع تحت رأسه فوق قيثارة فسمع نقر
الرمال ولم يفسر فاستفسر

تعالى صوت الأمطار الرملية قليلا " فلنذهب إلى صاحب
النجوم "

"ومن صاحب النجوم؟"

"إنه رجل ذو علم ويعرف لغتنا.. ربما إذا ذهبنا له أفادنا"

لم يأخذ وقتا ليفكر .. أي طريق في آخره بصيص نور

سيسلكه ..

صحيح أن قيثارة ستكون ثقيلة لكنها من تعرف الطريق

وهي من ستكلمه ؛ لا مفر من ذهابها معه

وفي الصباح نثر بعض الرذاذ على قيثارة وبعضه على نفسه

وتسول قليلا

وباع منزله لشحاذ أغنى منه قليلا ليجمع مال الرحلة ثم

حمل قيثارة وانطلق..



لو كان صحيحا ما يقولون أن الكنز في الرحلة فهو منحوس
حقا عازف هذا

أي كنز سيلقاه رجل وحيد يحمل صخرة يسلك طريقا
وعرة لا معلم لها؟؟؟

أي كنز هنا؟؟..

ثم ما كل تلك الصخور في الطريق؟؟!!

وكأنه ملتمى صخري

كانت أول مرة يعرف معنى الضوضاء ، وهي ضوضاء من
نوع خاص ؛تداخلت فيها أصوات الحصى بالرمال وأصوات
الاحتكاك والطرق ..

إن الصخور كثيرة الكلام حقا.. باستثناء قيثارة

أين أنت يا صاحب النجوم ؟

لا كنز هنا يا صاحب النجوم

لا شيء على الإطلاق سوى آلام في القدم وجفاف في
الحلق وصرخات مزعجة من صخور غاضبة - لا يعلم كيف -

يضع قدمه على هذه الصخرة فتصرخ أن ابتعد.

يركن على تلة صغيرة فتتصايح حصواتها "ارحل عنا يا هذا"

لم قيثارة ليست كذلك؟ ..

لم ليست غاضبة مثلهم؟ ..

هذا السؤال لم يسأله لقيثارة

كان قد وصل إلى أرض واسعة خالية أراح على ظهرها

ظهره ، وتطلع إلى السماء.

هذه عيونها الحلوة

تلك النجمة مرت في مقلتها يوما ما

ذلك الشهاب هو ما أصاب قلبه في اليوم الأول ..

ما زال يسري ذاك المأفون ..

ربما يبحث عن قلب آخر يتغذى على ألمه ولوعته

تلك النجمة السيارة لمعت في عينيها يوم أن ضحكت

ما أجمل ان تنام في عيون شغفك!!

استكانت رأسه على قيثارة وأغمض عينيه منتشيا فخرج

ذلك الثعبان إلى حلمه من شقتها.

عبست أحلامه مللا

ألا يوجد سوى تلك الرؤيا في كتاب خيالاته؟؟

أبعد رأسه عنها وأفرشها معه الصحراء ونام دون أن يحلم أو
يتقلب حتى هزت الشمس فراش ثباته فاسقطته عنه..
" لقد وصلنا "



II

قالت زهراء " لا احد يعرف من أين هو و ما جاء به
إلى هنا ، تصوري !! "
قالت مربيتها " و ما الغريب ؟ إن حولنا قرى و بلدان
كثيرة ، يأتي إلينا من الغرباء الكثير يبقى من يبقى و يرحل
من يرحل ، ما الخاص فيه حتى تسألي عنه ؟ "

كانت الظهيرة تتشاءب خلف نافذة الفتاة و بدأ نسيم العصر
الدافئ المعبأ برائحة الحقول القريبة يتهادى ملوحا للشمس في
كسل

قالت زهراء " فضل و فضول ؛ فضل إنقاذه لي دفع
فضولي نحوه . و لقد رأيته غريبا في كل شيء ؛ غريب المكان ؛
لا هو منا و لا أحد يعرف من أين جاء . غريب السمات ؛
شحيح التبسم هو فلا يجود ثغره على الكون ببسمة إلا فيما ندر
.. كريم التجهم دائم العبوس .. وجهه المرهق الذابل لم يطفئ
شعلة الغضب و التحفز في عينيه الرماديتين ، متوتر كصفحة
ماء تناوبت عليها أحجار فتية صغار مشاغبين ، و كأنه دوما
ينتظر من يهجم عليه من الخلف ، و إنتي لأتساءل أي حدث
أصاب روحه فجعلها هكذا ؟ لكنني برغم كل هذا لا أجد فيه
شرا بل أحسبه رأى من الشر ما يجعل نفسه تعافه "

أطالت المربية النظر اليها في المرآة و توقفت يدها عن غزل
ضفيرتها و قالت " أعلم أنه لفتى وسيم الطلعة فتّي العود
ممشوقه ؛ لكنك أجزلت الوصف و أفضت ، ألا تراك
تبالغين؟! "

" ما وصفت وسامته و لا تغزلت في فتوته ؛ إنما أفضي
إليك بما قرأت على صفحة وجهه و تقلبات ملامحه .. "

صمت قليلا وانتظرت حتى غادر الخجل وجنتيها ثم
استأنفت " وسيم هو و فتّي ، لكنه لا يعلم ، و لا أظنه يرى
نفسه هكذا و هذا ما أقصده ؛ ما الذي جعل فتى مثله حزين
مهزوم هكذا ؟!! "



يقول بائع البذور " إنها حلم كل فتیان البلدة و البلاد
المجاورة .. خطبها الكثير و رفضت الجميع ، حتى أبوها لم يجد
من هو أهل أن يسلمه روحه و ریحانة داره "

" و ابن الراعي ؟ أراها في حديثها عنه تتحسس مواضع
الخير فيه و تتلمس له الأعذار و إن وهت ؟ "

" هي كذلك دوما .. لا ترى إلا الخير و لا تقول إلا ما
حسن من القول . هي أيضا لا تذكرك إلا بالخير "

" لم ترى مني شرا لتذكره !! "

" و كذا ابن الراعي لم ترى منه شرا "

" رأيت منه الخير إذا ؟ "

" لا خير و لا شر ؛ هي لا تحدثه إلا إذا ابتدأها هو "

بالحديث فترد عليه تأدبا ، لا تلتظفا "

و صعدت غصّة تلهب صدر صادق و تجثم على أنفاسه

فتثقلها

و أحس أنه يحاول أن يرتقي مرتقا وعرا ..

إنها بعيدة المنال .. صعبة المبلغ

حتى الآن لم يجد شائبة تشوبها

لا يوجد في البلدة أحد إلا هو مادم لها ، محب لأبيها

و هو لا يستطيع أن يذهب في سؤله إلى بعيد ؛ و إلا

كشف عن مكنون صدره و ضاق به الخلق ، بعد أن أوسعوا

له في حياتهم موضعا

حاول متخابثا أن يذكرها في معرض أحاديثه مع من جمعه

الكلام بهم من أهل البلدة ، و ظن فيهم من السداجة ما يفتح

أبواب خزائن أسرارهم ، فلم يسفر جمده إلا عن هائم بها ، أو
متغزل فيها.

حاول أن يتشمم في أحاديث النسوة محبي الفتن و النيمة ما
يبرد نار صدره ، أو يفتح له فرجة يرى فيها أي شيء خبيث
بتلك الفتاة ؛ فلم يستشف منهن إلا غيرتهن منها ، و غيظهن من
نقاء سيرتها ، و سريرتها

الكل إما معجب ، أو متعجب

" هي ابنة الحاج الطيب على كل حال "

" طيبة ابنة طيب ... يا حظ من ينالها!! "

تطلع إليه صادق

و تلك النظرة الهائمة على وجهه و هو يتحدث عنها !!

هذا الوغد يحلم بها أيضا !!

المأفون

و تكونت غصة أخرى ضاق بها صدره أكثر مما هو
تقلصت ملامحه و خرجت زفرته مرهقة حارة
و ارتفع جانب فم بائع البذور قليلا و هو يرنو إلى صادق
بطرف عينيه الماكرتين .



و يسأل صادق " أين ابن الراعي ؟ "

يسأل و لا أحد يجيب

لا أحد يعلم ، و لا أحد يهتم .

" و من يعلم أين يذهب ؟ حتى أبوه لا يعلم . "

و لم نهتم ؟ إنها ليست المرة الأولى على كل حال "

" دعك منه فسيرته لا تأتي بخير ، و حضوره لا يطرح بركة
و لا يحل سلاما"

لكنه كان يهتم

إن ابن الراعي هذا مثله ؛ منبوذ مدفوع لا يرى الناس فيه
خيرا و لا يرجون منه رجاءا طيبا

إنه هو في جسد آخر

كان يراه أحيانا كلما نزل البلدة لزرع يبيعه أو بذورا يشتريها
، و كان كلما رآه تذكر نفسه قديما .

يا لك من تعس يا صادق !!

إن مراتك تسير و تحيا أمامك ..

لقد ظننت أنك خلعت عباءة ماضيك و ألقيتها خلفك فاذا
هي وجدت جسدا اخر تفضحه بكسوتها و الأدهى أن لابسها
الجديد أمام ناظريك

شيء آخر أثار سؤاله عن ابن الراعي
تلك الصلاة التي يظنها بينه و بين الفتاة
ربما هذه هي البقعة الدنسة في ثوبها الطاهر
ربما هو من تذهب معه إلى قلب الساحر
ربما هو من فعل بها ما جعلها تقف على باب كوخه على
الحال التي كانت عليه
لذا كان يسأل عنه

هو وحده من كان يستطيع أن يسأله عنها دون أن يقلب
أهل البلدة أفكارهم تشككا فيه

لكن أحدا لم يعرف عنه شيء

إلا هي

" لعله فر هاربا كما يفعل كل مرة!"

" كل مرة؟! "

" نعم؛ كلما ضاق أبوه به ذرعا يذهب مغاضبا "

لما رأت قلق صادق قالت ملاطفة

" لا تبتئس .. هو كذلك دوما؛ يختفي و يختفي ، ثم يلفظه

حوت الجوع و التشرذ عند يقطينة أبيه ثانية "

" مسكين "

صمت قليلا ثم أجابت

" نعم .. مسكين "

إذا فهو على حق

إن ابن الراعي هو أول خطوة في طريق شفاء صدره ...



و كانت زهراء تظنه صديقا ..

و كانت البلدة قد رفعتة لمنزلة أهلها أيضا

منذ ذلك اليوم الذي أنقذها فيه، و كلما التقيا تحادثا قليلا

لم تكن أحاديثهما تطول ، لكنها كانت تترك أثرا في قلبها

،وأثارا في نفسه

كلما افتر ثغرها عن بسمة حبية

كلما ازداد اللون الوردي على خديها درجة ،أو درجتين

كلما طالت نظرتها إليه متطلعة لكلمته القادمة

كلما انعكست الشمس على أهدابها المكحلة
كلما تركته على مبيض ازداد سرورا ، و انتشاء
" هنا قلب الساحر "

كان الغروب قد بدأ يسترب في الوان الموجودات ، و تناثر
الشفق الأحمر على صفحة الماء ؛ فبدا و كأن قلب الساحر
ينزف

و يتساءل صادق " قلب الساحر ؟ "
" بلى .. حيث مات الساحر ، و دفن على مقربة من هنا. "
" ان الماء لا يعجبه اللقب ، و له كل الحق "

تبسمت ، و خفظت عينيها ناحية الماء الغاضب
كانا قد اتفقا على اللقاء هنا ؛ حيث المكان الذي وعدنا ألا
ينخبأ أحدا أنها تذهب إليه

لا يعرف ، و لا تعرف هي كيف اتفقا

لكنها كانت ترى أن له الحق في المعرفة ؛بعد أن كادت

تضعه موضع شبهة و تجريم

" و لماذا تأتيين إلى هنا ؟"

" لا أحد يأتي إلى هنا ؛فالكل يراها أرض محرمة ؛ لذلك

كلما أردت أن أختلي بأفكاري ،وأناجي نفسي جئت إلى هنا .

ربما يبدو ما أقوله مستغربا ؛لكن هذا المكان في البلدة هو

الموضع الوحيد الذي يخلو من الكذب "

" لكنه نفس المكان الذي أصابك منه الوحل و الوهن "

" لا ذنب للمكان في هذا ،إن الذنب ذنب فضولي

كالعادة"

التفت إليها متسائلا فوجدها تتأمله

قالت و كأنها تحدث شيئاً داخلها

" ذات الفضول الذي يدفعني لمعرفة أي نحات شرير نحت
الهم على وجه بريء ، و أي جرم ارتكبه شيطان كي يجعل
أحدهم يحيا على حافة الحياة "

تبا ..

كيف يوقف ذلك الرجفان في قلبه الان !!؟؟

استدار عنها ، وأشغل نفسه بجذر صغير لم يثبت نبتته
الأخضر بعد ، فاخذ ينتزعه في غل .

قال ، و هو يجاهد ذلك الفوران في دمائه " لم تجيبين
سؤالي "

تبسمت ، و قالت و عينيها تتابع تموجات الماء ، و هي
تتشاجر مع بعضها

" هلا تأملت تيارات المياه هنا .. "

أغاظه أنها لم تجيب فقال محنقا

" إن كنت لا تريدان الإجابة فلم جئت بي الهنا ؟ "

" أنا لم آت بك ؛ أنت اردت المجيء ، أنت كنت تتطلع إلى

المجيء "

كانت هادئة

و كان يغلي

المفترض أنه هو من يحاول أن يسبر أغوارها كي يجد عوارا
في لوحتها المرسومة بتفان ، و ها هي تحادثه في غياهب نفسه
في ثقة و حكمة

و كانت على حق

تبا تبا ..

ازداد عبوسه و قنوطه فأغمضت عينيها و قالت

" قلت إن فضولي هو من فعل بي ذلك ، و قلت أنني
دائمة المجيء الى هنا لأتأمل وحدي . إن المياه هنا لا تتدافع
تياراتها و لا تتوتر و لا تتضارب ؛ إنها تنتفض ؛ تتابع صعودا
و هبوطا في نمط واحد "

تأمل صادق المياه

حقا !!

إن الماء لا يجري و لا أمواج تتضارب بها ، بل تبدو و كأن
أحدهم يدفعها لأعلى

ضيق عينيه و أخذ يجمع كل شتيتة في تركيزه و يوجهها إلى
تلك المياه الغريبة

" إنها تبدو .. تبدو .. "

"كأنها تنبض .."

اتسعت عيناه

طافت بذهنه خاطرة مرعبة فنظر إليها و تساءل مذهولا

" هل الماء هو ما جذبك لأسفل ؟"

ضحكت حتى اغرورقت عينها فازدادت ألقا

" لا .. لا .. بل أنا من نزلت إلى أسفل بإرادتي "

" لكن .. لكن لماذا ؟ أي جنون هذا ؟ "

" قلت لك من قبل ؛ إنه الفضول . إن البلدة كلها تظن أنني

بلا عيب ، أنني الكمال ، لكنني أعرف نفسي ؛ إني أمتلئ

فضولا حتى يفيض على أفعالي ؛ و لذا فأنا أعرف تلك البلدة

جيذا و أعرف أن هذا هو المكان الوحيد الذي بلا كذب ..

هنا و قلب أبي "

" و ماذا عن ابن الراعي ؟ "

" ماذا عن ابن الراعي ؟ "

" أراك تضعينه في موضع غير ما يضعه أهل البلدة "

" إنها الشفقة ؛ هذا الفتى يفني نفسه بنفسه ، و لو كان به

فضل عقل أو بخل بندقه على حياته لصلح حاله ، لكنه قد

عاهد نفسه على أن يفسدها و هذا يحزني "

"لعلك أردت أن تنقديه من نفسه؟"

"إن حاولت أن تنقذ من ربط قدمه بقاع النهر ليغرق

فستغرق معه"

" أتعنين أنه لم يأت معك إلى هنا من قبل ؟ "

طالت نظرتها إليه و شاع اللوم على ملامحها

" أنت لا تعرفني ، و لن تعرفني هكذا "

" هكذا ؟؟! "

أشاحت بوجهها عنه و قالت

"أسئلتك تخفي غير ما تظهر ؛ ما هذا بجديث يستأهل

الرد "

توترت ملامحه و أحس أنه طفل صغير أحمق

" لم أقصد الإهانة "

" أعرف ، لكنك تبحث عنها "

" ... "

و تلجم لسانه

ماذا هي تلك الفتاة ؟؟! !!!

حاول أن يتدارك أمره فقال في هدوء و قد تهدلت كتفاه

" لك أن تصدقيني أو لا ، لكني ما سألتك لهذا "

" لم سألت اذا ؟ "

تطلع إلى عينيها التي حاولت أن تحبس بداخلها قطرتين من
الدموع تأييان إلا الانسدال

و شعر بوخز في صدره

قال " سألت ليطمئن قلبي "

تبسمت بسمة دامعة زادت وجيب قلبه و جيبا و وخز

صدره ألما

تساءلت " و كيف ذاك ؟ "

" لقد كنت أتطلع إلى المجرى الى هنا معك كما قلت "

صمت قليلا و أخفض صوته درجة أو درجتين و هو يقول

" و كنت أتطلع أيضا ان أكون "وحددي" من يأتي معك
إلى هنا "

و علم أنه أصاب هدفا

أخبرته حمرة خدها التي اشتدت و بسمتها التي اختلجت

و تبسم هو في رضا

قالت له " أما عن ابن الراعي فإني لا أذهب معه الى أي

مكان ، لا هنا و لا غير هنا .."

نظرت إليه

" و أما عن قلبك فليته يطمئن ، هو و خاطرك .."

و هنا أدرك أنه يجب أن يرحل .. حالا



الفصل الرابع

يغير الله من حال إلى حال

"طالح مجدي بك"

I

" لقد وصلنا "

أخيرا أعلنتها قيثارة بعد رحلة مزعجة جدا..

كان أمامه أرض كأرضه إلا أنها بلا بشر

أسواق بلا بائع ولا شار

بيوت تسكنها الهوام

ورجل متوحد باش الهيئة رثها يتطلع إليهما كأنه كان في
انتظارهما

وعينه على قيثاره

لما وقف عازف أمامه ؛مد الرجل يده إلى قيثارة ، واحتواها
في راحتيه كطفل

صغير

أراح جبينه عليها ونثر دموعه ترطيبها بعد جفاف وقيظ
تحسس الشق مشفقا ، وهمهم بكلمات لم يسمعها عازف
؛فيده كانت بجواره

أما عازف فكان منصرفا عن هذا إلى ملابس الرجل
لهذا أسموه صاحب النجوم..

لقد كان ثوبه الطويل ، الرث ، حائل اللون تملؤه النجوم أكثر
مما تملأ السماء

بدا كأحد الحواة ، أو المنجمين ، وإن كان وجهه وجه رجلا
شريفاً..

مد الرجل يده إلى يد عازف ، وقال بلغة قيثارة ، وليس
بصوتها " أخبرتني أنك تريد أن تتقن لغة البشر ، فما حاجتك
إليهم ؟؟ "

"أنا منهم ..وهي أيضا منهم؛ صاحبة العيون الكونية"

تبسم الرجل مشفقاً " ألا تقدر على النسيان ؟ "

"وهل تُنسى السماء ؟ ..إذا ازرقّت السماء ؛تذكرت بحر

ضحكتها الذي أغرقتني فيه ، وإذا اسودت ؛برقت نجوم عينيها

في عيني ،وانعكس ضياؤها على فكري فأرقه.. لا مفر مما أنا
فيه إلا بأن تكون لي"

"وهل تظن أنها ستقبلك لها لمجرد أنك تتكلم بلسانها؟
..مثلك في هذا كثير"

"لو أن لي ملك الدنيا ،وصوتي كصوتي ،ولغتي كلغتي ؛ما
رغب في أحد"

"قيثارة فعلت"

"وما للبشر والصخر؟؟؟"

أشاح بوجهه عازف ،فعبس بعينه الصاحب ،ثم شد على
يد عازف وقال

" لك ما اردت وأمثاله .. فارحل ؛ فإن بيتك صار قصرك
، وتراب أرضك أموالا ، ولا احد إلا ويرغبك .. اليوم لك ، وغدا
مصيره معقود عليك فاعلم واحفظ جيدا ما أقول :

احفظ العهد وإن لم تقله .. أقوى العهود ما لم تقال
وإن ألقيت حبال الوفاء .. لقيت دماء كمثل الجبال "
ساد الصمت ..

ووقع في نفس عازف صدق الرجل وقع اليقين فانبعثت
مزامير السعادة تزف النشوة في دمائه
كان يتقاذف فرحا ، كطفل حظي بلعبة أحلامه .. يصيح
، ويضحك ، ويقفز ، ويجري

شكره كان حارا متعجلا ؛ فالريح كانت تنتظر إطلاقه لساقيه
، لولا أن استوقفه صاحب النجوم أن " خذ معك قيثاره "

" ولم؟؟؟ "

" ضعها في مركز قصرك ، بجوار النافورة "

"أنا عندي نافورة؟؟!!!"

"خذها ، ومبارك عليك لغتك "

هنا أدرك أنه يتحدث لغة البشر ، ويفهمها ، وكأنه يفعل ذلك

منذ الأزل

لو كان له قدرات فائقة ؛ لرأى تلك الهالة التي تشع من

حواله ترفع هامات الزهور الذابلة وتحيل الأجاج فرات

أضف إلى ذلك ؛ ذاك الوفد الذي استقبله هاشا ، باشا

، كأنه حاكم البلدة

ضع فوقه هذا المبنى الذي زف إليه على أنه منزله

افتح خزائنه ، حتى تتطاير النقود في وجهك ، كعصافير
حبيسة

"مرحى يا عازف .. أنت الآن بشر"

ألقى قيثاره حيث أخبره صاحب النجوم ، وانطلق كفأر
صغير يتشمم أرجاء القصر

كذب هنا.. طنafs هناك .. حلي يرهق بريقه الناظرين
أشجار ناءت بما ثقلت

"مرحى يا عازف ..مرحى مرحى"

لم يبقى سوى تلك التي احتبست الكون في عينيها
وضع عليه ما رآه من ملابس ، وحلي .. حشا جيبه بالمال
، وخرج ناثرا بعضه على من وقف على عتبه يستجديه ..
يجب ألا تنسى أهل مهنتك الأولى .. اليس كذلك ؟ ..

يجب أيضا أن تتصرف كأنك لست منهم..
على باب بيتها وقف يمرن أوتاره على لغته المحدثه..
يالوقع الألف مع النون ، والياء مع العين !!
ما أرقى لغتكم يا بني البشر !!
أنا الآن منكم كما يجب أن أكون .. بل أفضل من أغلبكم ..
أنا عا...

قاطعته هتاف متحمس من داخل المنزل

"إنه السيد حصاة...!!! إنه عندنا...!!!"

تلفت يمينه ويسرة.. لا أحد!!!

هل ينادونه حصاة؟؟؟!!!



حصاة!!

اسمه عند البشر .. حصاة!!

أي اسم حقير هذا!!!

أين هذا الاسم من عازف؟؟!!

إنه اسمه الحقيقي..

فمن أين جاء حصاة هذا؟؟!!

استياؤه البادي على قسماته أوجس أهل البيت ؛ فبادر ربه

قائلا " بالتأكيد منزلنا لا يليق بك ياسيد حصاة"

"اسمي ليس حصاة ..اسمي..."

لولا رفعة منزله ؛ لاتهمه أهل البيت بالمس ، لكنهم اكتفوا

بالفرع من ذلك الصوت المنفر الشبيه باحتكاك حصاتين..

لزمه الذهول برهة ، أدرك فيها مجريات الموقف ، فتدارك
قائلا " لا بأس ، اسموني ماشئتم .. فأنا على كل حال سأصبح
منكم "

لما استدار كل منهم للاخر متسائلين ؛ أراد أن يعيد إلى
رعوسهم اتجاهها الأول الموجه إليه ، فهمّ بالمتابعة ، لولا شهاب
أصابه فتصلب

ألا يوجد بها ما لا يجذبه ؟ ؟ !!

عيناها مجرة ، وضحكتها شمس ، ومشيتها اهتزاز النسيم على
خد القائظ المتلهف ..

ما اسمها ياترى ؟ ؟

بالتأكيد اسمها "فتنة" أو "حلم" أو شيء خارج متناول

البشر

متطلعا إليها مأخوذا قال " أريدها هي "

قال رب البيت لما التفت إليها " كنت أعرف أن "بريق"
لن ينالها أي أحد"

" إسمها بريق ؟ ؟ "!!!

إسم على مسمى ولا شك .. وهل قلب حياته رأسا على
عقب غير بريق نجومها ؟!

لم يكن قد خرج من تيهه فيها بعد ، حتى عندما سألتها أبوها
أن ما قولها فأجابت بعلامة الرضا

وإذا كان هو يستطيع أن يتحدث لغة الصخور ، فلم لا
يستطيع الطيران ؟ ؟ !!

هل يمكن لصاحب النجوم أن يجعله يطير ؛ ذلك
الاختلاج في قلبه ما هو إلا رفرقة ..

خطواته الخفيفة تقاوم الجاذبية مقاومة حامية ، تكاد تستسلم
لها الجاذبية

إذا فتلك هي السعادة !!..

"ياالسعد حظك يا عازف ..ياحصاة .. يا أنا أيا كان اسمي"

سعادته زادت من جمال قصره .. نافورته كانت تنثر عطرا

لا ماء ،ومراياه تعكس قوس قزح على الموجودات..

أين قيثارة ؟ .. يجب أن تعرف هذا

"عازف !!مبارك عليك .. سعيدة من أجلك"

"لا يمكنك أن تسعدي .. لقد احتكرت السعادة ،وأغلقت

منافذ بيعها عن الخلق ؛فصارت لي وحدي"

"هنيئا لك يا عازف ،لكن لا تنسى ما قاله صاحب النجوم

،اجعله دائما نصب عينيك"

"حسنا ..حسنا..لا تفسدي علي لحظتي ، كما أفسدها علي
ذاك الاسم الذي أسمونه البشر ؛ إنهم يدعونني حصة"!!

ترقرقت الرمال قليلا " أنت الآن أشبه بي منهم"

"أنا لا أشبهك في شيء"

"على العكس يا عازفي ،أنا أقرب لك منهم ؛أسمك من
شكلي ،لغتك الأولى لغتي ،أول حواراتك دار معي ؛أنا وأنت
متصلان"

"ربما هناك صلة ؛أنتي طين ،وأنا عشت سنينا في الطين
،تستطيعين أن تسميها صلة إن شئت ،لكن لتتمسكي بها
وحدك .. أما تلك الملابس فهي أغلى من أن يمسهما الوحل"
" تذكر يا عازف" ..

فلتبقي هنا قيثارتي العزيزة ، أنت لا تستطيعين فعلا غير
هذا على كل حال ..
واسمي حصة" ..



فليحتفل أهل البلدة ماشاء لهم أن يحتفلوا ..
ليرقص من شاء ، وتغني من استعذبت صوتها ..
القوا الحلوى على الأطفال ، وانثروا الذهب والفضة على
المتلهفون لهما ..
أنيروا الأرض ، حتى تؤنب السماء أجرامها على تكاسلهم ..
اليوم أصبح لحصة بريق ..

أيام حلوة مرت ، وأحداث عذبة جرت ، وحصاة ملقى في
لجة بريق حتى العمق ، وبريق ملقاة على الأسرة ، تنعم بالبذخ
الذي هبط عليها دون نذير سابق..

بريق تزداد بريقا ، وحصاة يزداد وزنا ..

ثم بريق تزداد وزنا ..

ثم تزداد فردا

ثم هو ولد جميل ، لم يرث من ملامح أبيه شيئا ، و لقد
أسعد هذا عازف..

كل ما يأتي من بريق مبهر مثلها..

ماذا يا عازف؟؟؟

ماذا بقي من مبررات الحسد لم تحوذه؟؟؟

" ماذا ستسميه؟ " سألت قيثارة

"سأسميه رخيم؛ لعله لا يملك من صوتي شيئاً، مثلما لم يرث
من ملاحي شيئاً"
وقد كان..

لم يكن لرخيم من صوت أبيه شيئاً، ولا من صوت أمه
، ولا من أي صوت
لقد كان رخيم أخرسا!!



II

تراقصت الوريقات الهشة لتلك الشجرة إذ تخللها نسيم
الصباح البكر من أعلى، بينما صارعت الغرق ما تدلى منها
يلامس صفحة الماء المضطربة.

كانت تنتظره ، كعادتها منذ وقت ليس بطويل
لامست أناملها البراعم الطفلة ؛ فتجمعت الوريقات الصغيرة
، تسائل بعضها بعضا في نجل عن تلك الحسنة.
تبسمت هي لتلك الأعجوبة الصغيرة ، بينما هو يتأملها على
مقربة مختبئا في خلفية تلك اللوحة التي يتأملها فيها
كانت غارقة في عالمها الخاص ، و هو أيضا
رفعت ناظرها إلى السماء ، وتألقت قطرات الذهب في
عينها ، فذاب إدراكه بأي شيء سواها
كانت تعجب من تلك الصداقة التي نشأت بينهما ، و التي
ظنت أنها قد تُحمد جذوة فضولها ، فلم تزيدها إلا تأججا
حتى الآن لا تعرف عنه أي شيء ؛ لا تعرف قصته ، و لا
تعرف من أي أرض جاء

لا تعرف سر إجمامه عن البشر ، و لا تعرف لم – دوننا عن
باقي أهل البلدة - رضي بها رفيقا.

أما هو ، فقد بدا جامدا كتمثال ، بينما داخله يضطرب
اضطرابا ، إذا رأته حسبت صفحة ماء النهر راكدة

خواتره بحر لحي متدافع الأمواج ، و ذلك الوجيب اللعين
في قلبه يزداد يوما عن يوم

كلما اكتشف منجما ذهبيا جديدا في عينها..

كلما أفضت له بسر يعلم أنها لم تحكيه لغيره..

كلما تقطر الدفء من همساتها الموسمية..

كلما اضطربت خلجاتها تأثرا بكلمة قالها ، أو فكرة مريرة أبت

إلا أن تعلن عن وجودها داخله..

و أدرك أنه في خطر

ليس هذا ما خطط له ، و سعى إليه على الإطلاق
و كان كلما ارتجف خافقه ، و زاد وجيبه ، حدث نفسه أنه
من فرط حماس لا أكثر ، لا عن رقة أصابته و لا لهف عليها
ازداد داخل جوانبه

و كعادته كلما طافت به أفكاره في وديان الشرود ، كان
يذهب إلى أرضه سمراء الوجه ، خضراء الطالع
" صديقتي الطيبة..

كيف تريني ؟ و ما ظنك بي ؟

هل أنا ذلك الفتى مهشم النفس ، ممزق الروح ؟

أم أنا ذلك الفتى مظلم الداخل ، مغلق القلب ؟

هل أنا بريء ، طاهر الذيل كندی الصبح على أوراق

زرورك الغضة ؟

أم أنا موحل من الداخل ؛ حتى أنه إذا مسنى النسيم
ذهب يغتسل ؟

هل أنا مدنس ، و قد القاني قدرى إليك ، و إلى تلك البلدة
الطيبة كي أتطهر ، و أعود إلى سابق عهدي بنفسى ؛ طيب
.. رحيم .. نقى ؟

أم أنا الدنس نفسه الذى أتى إلى هذه البلدة المسكىنة كي
يشيع فيها فيهلكها ؟

من أنا يا صديقتى الطيبة ؟

ماذا أنا ؟

لقد ظننت أنه قد صار لى هدف فى حياتى

و لقد ملأني هذا الهدف رغبة في العيش ، و زاد من
قناعة أنفاسي في الاستمرار ، بعد أن كنت أمقت ألا حيلة لي
فيها ، و إلا كنت قد كتمتها للأبد منذ زمن .

و برغم ذلك الحماس إلى السعي نحو ذاك الهدف ، و تلك
الرغبة أن أصل إليه ، أن أغرس رايتي السوداء على تلك
الأرض ، فتصدع ، و تلفظ حممها ؛ إلا أنني في ذات الوقت
قلق ، أرهب الوصول

أنظر إلى آخر ما يصل إليه ناظري ، فلا أرى إلا قبحا ، و
بشاعة ، و خيبة أمل !.

فماذا عساي أن أفعل ؟

استمر في طريقي ، و أقنع نفسي أن ذاك الذي في نهاية
الطريق إنما هو سراب انعكس عليه مكنون سريرتي ؟

أم أعود ، و أكتفي بك ، و بكوخي ، حتى أدفن فيه ، أو
فيك ؟

أي حيرة هذه ؟

أيا صديقتي الطيبة ..

أليس لي في حياتي من راحة ؟؟؟!!



و لم يعد صادق يذهب إلى قلب الساحر

لم يعد يرغب في الذهاب

أو - بالأحرى - أصبح يخشى الذهاب

يخشى أن يلقاها

لكنه كان إذا نزل البلدة ، و مشى في أسواقها ، تنقلت عيناه
بين أوجه البشر

تتوقف مقلتيه على قطعة ذهب براقه ؛ فيتذكر عينيها
تستوقفه باقة زهور بيضاء ندية ؛ فترسم بسمتها النضيدة
في مخيلته

أما خديها الخجولين ؛ فكان يراها في كل وردة متفتحة
تشبعت حمرة ، و عطرا
و ازداد صادق خوفا

كان محاصرا دون سياج ، أو سجان
حصار فرضه فكره الممزق و إحساس بالفقد يتغذى على
براح صدره و يفرض تهديداته على أنفاسه الضائقة
و لم يعد يعرف ماذا يفعل

هدفه الذي كان قد ظن أنه سببا كافيا ليحيا ، أصبح بلا

مذاق

رغبته التي كانت تناديه بالأذى ، أضحت تؤذيه

و ظن بعقله ظنونا أرجفته ؛ فلم يجد إلا ملاذه الآمن

؛ يفضي إليها بمخاوفه

" يا صديقتي الطيبة..

ماذا حل بي ؟؟!

أتراني جنت ؟؟ ، أم مسني مس من ذاك المكان المسمى

قلب الساحر ؟!

لم أعد أعرف أي شيء

لم أعد أتذوق أي شيء

و إنني خائف

و ما الخوف بجديد علي ، و ما جاء بي إلى تلك البلدة إلا
الخوف

لكنه ليس ذلك الخوف

لقد كان خوفي على نفسي من البشر

كان خوفاً أناانياً ، مبرراً

خوفي أن يظل مصيري كما هو

أن تأتي منغصات الأمس تعكر صفو اليوم ، و تكدره

أما الآن ؛ فإن خوفي صار من نفسي

خوف يشوبه الأمل ، و الرغبة في الجديد

خوف من الأمل نفسه

خوف من حياة قد تتبدل ، و فجر قد يحق ظلام تاريخي

ما زلت أخشى الأمس ، وأتهيب لحظة طفوه على سطح
أيامي الحالية ليسمها

لكن ... لا أعرف أتفهمين ما أقول ، أم لا
لقد كنت أخاف ؛ لأنني رأيت في نفسي سوء سريرتي ، و
بغضها ، الآن أخشى ألا أكون كذلك
و هي ..

تلك التي أطلت من ظلمات المجهول ؛ فأحالت سواد
أفكاري ألوانا تضاهي الربيع ، و تجعله باهتا باردا
إنها تجعلني أتمزق

إذا تحدثت معي ؛ كشفتني أمام الكون ؛ فشتتت خلايا
جسدي توترا و انهارا

فإذا افتر ثغرها عن بسمه ثقة غير مبررة ، أو أفرجت
شفاهها عن كلمة تحمل الأمان على حروفها ؛ تجمع شتاتي ثانية
، فإذا بي رائق النفس مبلبل الفكر

و لا أعرف ما هذا ، و لا كيف هذا

ليتني أراها ؛ لأفهم ، و أطمئن

ليتني لا أرها ؛ فأنسى ، و أسكن

لكنني أراها

في كل شروق شمس أراها

كم كنت أكره الشروق لو تذكرين ، الآن أنا متلهف عليه

ذلك الحلي الذهبي الذي تزين به الشمس صفحات الماء

؛ هو ذاته البريق في عينيها الضاحكتين الراضيتين

ذاك الندى ، و رائحة الفجر الطاهر ، ليسا أنتى ، و لا أظهر
منها لكنهما يحاولان
أنتِ...

أنتِ تذكيريني بها

ليتنى لم أرها

ليتنى لم أعرف عنها ما أعرفه من خير و نبل

ليتنى لم ألقاها يوما

ليتنى لم أتمنى لها سوءا ، و ما ذهبت إلى قلب الساحر

تلك

ترى هل ما زالت تذهب إلى هناك !؟

ما زالت تداعب الوريقات الحية و تصغي لنبض المياه ؟

أمازالت تنتظر !!؟؟

أم أنها ...

إنني ذاهب إلى قلب الساحر



الفصل الخامس

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

"المتنبي"

I

ألا تعتاد..

شيء مقيت ألا تعتاد

أن تتردد في دمائك عبارة "هذا ليس أنا" في كل مراحل

يومك

هناك احتمالين هنا

إما أن تلفظ كل شيء ، وتعود لسابق عهدك

أو أن تتمسك بجديك ،وتتبرأ من كل ما كنت عليه
وعازف كان يقف عند ذلك الحد الفاصل بين الاحتمالين..
لم يعتاد الجلوس كتماثيل الفراغنة .. لكنه سيعتاد
لم يعتاد أن يكون مزارا للخلق .. لكنه سيعتاد
لم يعتاد الليل الساهر في عيون خليلته البراقة .. لكنه
سيعتاد

حتى لو اضطر أن يعتاد ألا يعتاد..

شيء واحد لم يستطع أن يؤقلم نفسيته عليه .. شيء أدرك
أنه لن يعتاده ،ولن يعتاد ألا يعتاده ؛ذلك الصمت المطبق على
أنفاس رخيم

لقد علم -مما تعلمه من لغة البشر- معنى الأخرس ،ورآه في
محتاج جاءه ليفك كربه ..

لكن خرس رخيم لم يكن كما وصفوه ، ولا كما رآه في ذاك
المكروب..

إنه لا يخرج صوتا أيا كان..

كأن جوفه فارغ..

شفتاه مطبقتان منذ ولد ، وحتى الآن

حار فيه المعالجون ، والآن هو أعلى شأنًا من اللجوء

للسحرة والمشعوذين..

أي سخرية مقبته هذه!!

طوال حياته يقف الكلام جدارا صخريا عاليا بينه وبين أن

يشعر بأنه طبيعي..

كان صوته هو سبب نبذه ، وفقره ، وعجزه

كان نغمته

ولما زالت عنه ،وتسلق ذلك الجدار المبني من حصاتين
بجهد جميد ؛نقلت النعمة إلى ولده

لقد أمل أن يورثه الرغد ،والسيرة ،والسيولة .. فأورثه
اللعة ،والإنغلاق

مرارة مذاق الصمت المحيط بفلاته التصق بحلقة ؛فلم يعد
يستسيغ عيشه..

سيطرت على أيامه فكرة واحدة..

رخيم لن يتحول إلى حصة..

في وسط كل هذا ،لم يعد لقيثارة خانة في جدول أيامه..

ربما اصطدمت بها قدمه مرة ،وهو يهرول غاضبا ،أو

احتك بها وهو شارد الذهن فتأفف

لقد كانت الشيء الوحيد المعتاد في عالمه..

مرة ، أو مرتين في العشر سنين المنصرمة جلس بجوارها
؛ يضع يده عليها ، و يطلق لأنفاسه العنان .. يتكلم ، ولا يسمع
.. أو يسمع ، ولا يصغي ..

لم يعرف لماذا لم يعد يستأنس بها ، ولم يتساءل من الأصل .
فقط لم يعد في روحه متسع لها ..

ثم فيم حاجته لها الآن ؟

لديه لغة تناسب خلقته ، وزوجة تناسب منزلته ، وتتحدث

بلسانه

ربما لا تحدثه .. لكنها تتكلم لغته

ربما لا تفهمه .. لكن حروفه هي حروفها

ربما ليست مثله .. لكنها تشبهه

ثم إنه مازال متعلقا بأنجمها

لم يعتاد بعد الأكوان الدوارة بين رمشيها ؛ فكيف يغضبها
وهي تسخر منه كلما رآته جالسا بجوار قيثارة ، ناصحة له أن
يتخلى عما يفعل وإلا قيل عنه مخبول ممسوس

ثلاث نقاط ضعف لديه

رخيم ، وعيون بريق ، والسخرية

والثالثة وحدها تكفيه

لذا كان يتعمد البعد عن قيثارة ؛ تشجعه تلك الطريقة الخافته
على باب ذاكرته تعيد عليه سيرته الأولى ..

اعتاد أن يتعمد

وتعمد حتى اعتاد ..

وتتصاعد أدخنة اليأس من حال ابنه ؛فتخفق أنفاس الأمل
،ويترسب سوادها على جدران العزيمة ؛فتحيل الصبر غضب
،وتتهيدة الإرهاق زفرة سخط..

وهنا توجد قيثارة

لما خرج آخر طبيب يعرفه من عند رخيم ،يخبره بنتيجة
يعرفها ؛كان كيله قد طفح..

جلس بجوار قيثارة ؛في حركة تلقائية كلما اشتد عليه رباط
الهم ؛فلا يجد له حلا..

وضع كفه عليها كما كان يفعل قديما ،وسكت لسانه عن لغة
البشر

هل أوحشه صوته الممسوس ؟؟

هل افتقد حبيبات رملها ؟؟

لا يدري ..

لكن دفئا ما اعتراه فأغمض جفنيه وأطلق برودة يأسه مع
أنفاسه

"متعب أنت ؟؟"

"وأني تعب!!"

"نسيتني"

"لا وقت لدي"

"لديك كل الوقت .. لكنك بخلت به"

"وماذا أفعل معك؟"

"ما تفعله الآن .."

"حسنا فلنوقف هذا"

"لا تنس يا حصة" ..

"لا تدعيني بذاك الإسم"

"أنت قلت لي أنك حصة"

"أنا بشر ؛ شكلي شكلهم ، حياتي حياتهم ، لغتي الأم لغتهم"

"إذن ؛ فاسمك ما أسموك به"

"لقد صرتي ثرثرة!!"

"بل عفتني ، وأنفت حديثي .. لكن لا ضير ، يكفيني رخم"

هل سمع جيدا؟؟!!

يكفيها رخم!!!

"ما أروع صوته !! كلمس المرمر هو ، أو كمداعبة ماء"

الجدول الجار لصخرة ملساء تسترخي في قاعه"

"رخيم يتكلم لغتك!!!"

"أحاديثنا لا تنقطع"

لا .. لا يمكن لهذا أن يحدث..

لقد أقسم ألا يتحول رخيم إلى حصة..

لن تتكرر مأساته ثانية..

"أي لعنة ألقيتها على مصيري أيتها الصخرة الملعونة؟!"

"ما الذي فعلته أنا؟؟! هو رآك تحادثني مرة ففعل مثلك

.. كان سعيدا أنه مثلك في هذا"

"لا ، لن يكون مثلي أبدا"

سيطرت الفكرة على كيانه ؛ فحركته كالدمية..

حمل قيثارة ، وانطلق تتبعه ظلمة الليل..



II

و لم يجدها هناك !

كان إذا ذكرته الشمس أن علي عينيه أن تستقبل الصباح
الجديد ؛ ذهب إلى قلب الساحر

و إذا أخبرته الشمس ، و هي توليه ظهرها أنها على موعد
مع بشر آخرين ؛ ذهب ثانية

و هي لا تأتي !!

سبع شروق ، و سبع غروب

كل مرة يذهب ، و معه ذلك الأمل حديث العهد بحياته

، و يعود و معه قلب محبط ، و عقل حائر

و لم يستطع أن يخبر أرضه صديقه بذلك التقريع الذي
ينهش نومه فلا يبقى منه إلا تقلبا و أرقا
كان يعلم أنها ستوبخه على جنبه ، و تردد خطواته
كان يعلم أنها ستخبره أن ذاك التقريع ، و الأرق ، و
الإحباط ما هم إلا ضمير كان يظن هو أنه خُلق بدونه ؛ فإذا
هو حي ، يقظ ، يصرخ في جنبات ضلوعه ليتحرر
ازدادت قسما و وجهه وجوما ، و تضاعف بخل فمه
بالبسما

و عزف عن البشر

صار يكره ابن الراعي ، و يتمنى ألا يعود
تأففت نفسه من أحاديث الشباب ، و نعمة النساء
حتى بائع البذور ؛ صار يقتضب معه الحديث اقتضابا

و لولا خوفه أن تظن أرضه الأثيرة لديه أنه عافها هي أيضا
؛ ما اشترى بذورا ، و لا باع محصولا

أحاطه الحزن ، و حام اليأس حول سياج روحه المرهقة
، يتحين همسات الهم ؛ لينخر في رغبته في الحياة
و برغم نخله من صديقه الخضراء ؛ وجد خطواته تتوقف
أمامها

توسط البدر عين الليل المغمضة ، وأيقظ النجوم تستمع إلى
الفتى المهموم
" صديقتي الطيبة..

إنني أحتضر
كل شيء داخلي يتداعى

أنفاسي تتصلب بين ضلوعي ، و تأنف الخروج لهذا الكون
الذي ليست هي فيه

زهدت قدماي الخطى إلا إلى قلب الساحر

و صامت أحشائي عن الزاد ، والري ؛ حتى ترتوي منها

و ازداد خوفي خوفا جديدا

ماذا أفعل لو لم أراها ثانية ؟

كيف سأحيا ؟

هل سأحيا ؟

و يحي ، ماذا فعلت بنفسي ؟

لقد ألقنتني الدنيا في برّ أظلمه النبد ، و خنق هواءه الظلم

؛ فتجمعت مشاعري حول نفسها ، تتطلع في وجل إلى فتحة

البئر ، فلا تجد إلا ليلا غطيسا ، لا يفتر عن أمل ، و لا يلتفت
لدمعة قهر

حتى أطلت هي

فبدأت أرى أشجارا حية الأوراق ، و أنهارا رائقة الماء
نابضة بالأمل

عرف في مذاق البسمة الصافية

و وعت أذني لأحاديث لا كذب فيها و لا رياء

و ذهبت عن روجي كدمات تركتها صفعات الاتهام الظالمة

الفضة

و ماذا فعلت أنا ؟

أدرت ظهري لهذا كله ، كأنتي أليف الألم ، و ونيس

الوحشة"

ارتفع نسيج الفتى

و تجمعت النجوم تنير لدمعه الذي أغرق وجهه سبيلا كي
يفيض على أرضه الصموت

أغمض الفتى عينيه و ابتلعت عيونه دموعها و أفسحت
ضلوعه مجالا لهواء الليل العطر المشبع بالأحلام
" لا ..

لم يعد هذا عالمي ..

و لا أريد له أن يكون ..

لقت أتيت الى هنا طامعا في الجديد ؛ فلن أقف أمام باب

الحياة المغلق أستجدي وجودي بها ثانية

و إن كانت قد حدثتني نفسي بالأذى من قبل ، فهئذا الآن

ذو روح ، و ضمير

سأخرس حديث السوء

ولي مع روجي و ضميري ... و معها حديث آخر "



تأملت المربية الفتاة و زفرت

ليس هذا عهدا بها

ليس هذا وجهها النابض بالحياة

و أين الذهب الذي كان يلتصق في مقلتيها !؟

كيف خبت ألوانها؟ و أين ذهبت ؟

سبعة أيام ..

سبعة أيام لم ترى فيهم الناحية الأخرى من باب منزلهم .

خاصمت شرفتها

وانقطعت صلتها بتلك التي كانت تطل عليها باسمه من المرأة

عبست المربية

لعله هو السبب في ذلك !!

لقد نقل إليها عدوى الوجوم ، وأغلق على ابتسامتها باب

السأم ؛ فما عادت تشتهي حديثا ، أو تتوق إلى طعام

تهدت المربية

كيف تعيدها صورتها الحية الأولى ؟!

أرسلت نظرة إلى الشرفة لعلها تتلقى من السماء حلا للفتاة

لكن السماء كانت قد أرسلت الحل بالفعل يقف أسفل

شرفتها ماذا عنقه ، يمتنى لو استطال ؛ حتى يراها ، أو ينبت له

جناحين يطير بهما إلى تلك الشرفة ؛ فلربما تفر عينه برؤياها

ذلك التوتر

ذلك اللف

تبسمت المربية

ربت على كتف الفتاة في حنو ، فعادت الفتاة من رحلتها

الساهمة إلى راحة مربيتها

نظرت إليها الفتاة متسائلة فأومأت المرأة لها أن تلقى نظرة

على شرفتها

كادت الفتاة أن ترفض ؛ إلا أن مربيتها جذبت يدها و

سحبتهما إلى هناك تنظر من طرف خفي

و هناك رآته

يقف أسفل الشرفة متعلق النظرات بها ، مضطربهم

رآته ، و لم يستطيع أن يراها

تساقطت أمطار الهم على كتفي الفتى ؛ فتهدلا

أطرق رأسه ، و حاولت زفراته أن تطرد الهم بعيدا دون

جدوى

استدار ليرحل و عقله يسأل ألف سؤال

ماذا الآن؟

أين هي؟

كيف حالها؟

أني لي أن أراها ثانية؟

تثاقلت خطواته حزنا ، وبدى وكأن الحياة قد غادرت

روحه

"صاّدق"

و التصقت قدماه بموضعه من الأرض

هذا صوتها !!

لم يخطئ السمع ، أليس كذلك ؟؟!

و يجذب الأمل بتلابيب الهم يقذفه بعيدا عن كتف الفتى

فينتصب ، و عن صدره ، فتتسارع أنفاسه

رفع هامته موجها عينيه شطر شرفتها فإذا هي تقف هناك و

تبتسم ، كرؤيا خير تتحقق

لم يفكر كثيرا أ تلك الدموع التي تتقاذف في عينيه تهمر راحة

، أم تتراقص فرحا

تلك الأحاسيس الجديدة التي تكون هي منبعها دائما

قلبه يعود شابا من جديد بعد أن تغضن بتجاعيد الوحشة

و الهم

و أحس أنه نجا

وضع راحتيه على ركبتيه يستعيد أنفاسه الهاربة في راحة و
انحنى ينظر لموضع الأرض التي تروىها دموعه الفرحه

هنا ستنبت زهرة ..

كان متأكدا من هذا

تلك السعادة التي تفيض بها دموعه لا تنبت سوءا أبدا

و تبسم صادق

لأول مرة

ابتسامه واسعه سعيدة

ابتسامه حقيقية

نظر إليها ثانية و اتسعت ابتسامته أكثر-لو كان هذا ممكنا

ظل يتطلع إليها و هي ترسم رسما في الهواء بأناملها

و فهم صادق مرادها ، فأوماً برأسه متحمسا ملهوفاً

اعتزته خفة كادت تسقطه أرضاً

كل ما كان يحمله طوال سني عمره تبخر و تلاشي ، فأطلق

ساقيه فرحاً كطفل يوم عيد

يجري إلى قلب الساحر



الفصل السادس

مذمة من ناقص

"المتنبي"

I

— إلى أين؟؟؟

— إلى قاع النهر؛ يكفيني من لعنتك ما بي و بابني

— لا تلقي في النهر يا عازف؛ لا ذنب لي في ما حل بابنك

— لقد حلت علي اللعنة منذ أن قابلتك، لن أورث لعنتك

إلى ولدي

— لا تلقي في النهر يا عازف ، وأعدك لن أحادثه ثانية

— و هل تنسى الحية سمها؟!؟!

— لا تلقي في النهر يا عازف ، وأعدني إلى صاحب النجوم

— ولم أقطع كل هذا الطريق ، وأخوض تلك الرحلة القميئة

مرة اخرى؟!؟

— لا تلقي في النهر يا عازف ، ودعني حتى عند تلك

الشجرة ؛ ظلها يظللني ، و نداها يرطب علي

— ستجدين طريقا إلي بشكل ما ، بل سأقطع جذور

نحسك من أصلها

— لا تلقي في النهر يا عازف ؛ تخنقني الطحالب ، وتلتصق

بي

— وماذا في ذاك؟!؟! ؛ كل الصخور تلتصق بها الطحالب

_ لا تلقي في النهر يا عازف ؛تفتني ماؤه ؛فأفنى وأتلاشى

_ خيرا يفعل

_ لا تلقي في النهر يا عازف ، ما كان هذا عهدي معك

_ ومتى كان بيني وبينك عهد أيتها الصخرة ؟؟!!

_ لا تلقي في النهر يا عازف ...

رفعها عازف إلى عينه ،وبدا أقسى منها ،وهو يقول

" لقد أصبحتي ثرثرة"

ثم أفلتها من يده

سقطت هي ،واستدار هو

لم يقف يراقبها وهي تغوص

لم يلتفت

فقط تركها ، ورحل إلى منزله ، مباشرة إلى فراشه
طلب من زوجته أن تربت على رأسه كما يطلب كل يوم
، ورفضت كما ترفض كل يوم
وقبل أن تعلن عينه انتهاء ورديتها ، خيل إليه أن عينا
تراقبه

عينا تترقق فوقها غشاوة من دموع ، كبركة صافية جرح
كبرياء صفحتها حجر صغير ، وغد..
عين زجاجية...



وكان صباحا عاديا..

ولم لا يكون؟؟!!

كل شيء في مكانه..

زوجته على أريكتها براقه ، ساحرة ؛ كما هي دائما..

شفتا رخيم متعانقتان على الصمت ؛ كما هما دائما..

البسط ..

الستائر ..

حتى هو على حاله ؛ لم يعتاد على شيء ولم يفقد شيء..

لا لكن هنا كما هي العادة..

وما بعده كان عاديا أيضا..

وما بعده..

لم يورقه شيء قط طيلة ثلاث ليال..

حتى جاء اليوم الرابع ، وقد استيقظ على عين زجاجية

رقرارة تبكي في أحلامه

ومن دموعها نبت ثعبانا ضخما ، خرج من شق أسود ينبض
كان حلما مروعا ..

خاصة ذلك الثعبان الذي قد نسيه منذ أمد..

عرقه البارد ، وأنفاسه الهاربة من سجون صدره مذعورة لم
يوقظوا أحدا ، ولا حتى تلك النائمة بجواره..

لم يلاحظ أحد الزوال الذي أصاب دموية وجهه سوى

رخيم

اقترب منه ، ووضع يده ذات العشرة أعوام على خده ، وهز
رأسه لائما ، وانصرف..

لم يكن رد فعل مواسيا ، ولا مناسبا لحالته..

ثم علام اللوم؟!؟!!

لم يرهق ما تبقى من فكر خال به في التفكير في ذلك..

إلا ان جلسة رخم في موضع قيثارة كانت تزعجه حقا..
وكلما طلب منه ألا يجلس هناك؛ أشاح عنه رخم ابتسامته
وانصرف..

وعندما أصابه بعض الألم في حنجرتة، لم يهتم أحد، حتى
رخيم لم يبدى سوى ردة الفعل اللائمة فقط ..
زاد عليه الألم، فزاد الآخرون تجاهلهم؛ لا بريق تهتم، ولا
رخيم يصرف شبح اللوم الساكن في عينيه
أصبح الكلام صعبا، وبجة صوته أعادت له ذكريات مخزية..
لما بحث عن سلواه في عيون بريق التي طالما فتنته لم يجدها
، ووجد مكانها ما زاد انقباضة صدره قوة، وغصة حلقه مرارة
أين تلك النجوم؟! ..

أين ذلك الشهاب الذي ظل يضرب قلبه عشر سنين بلا
رحمة ولا شكوى؟!؟!!

أين المجرات والسدوم؟!؟!!

أين البريق؟!؟!!

إن هما إلا ثقبان أسودان ، يسحبان كيانه ، ويحيلانه هباءا
منثورا..

دوامتان ؛ تشده كل منهما من ذراع ، ولا منجى منهما..

تملكه الفزع ، وتربع على عرش نظراته فشردها..

تبا لذلك الألم المضني..

تبا لتلك العيون الزجاجية الباكية..

تبا لذلك الثعبان المترصد لأحلامه..

كان الغضب يسري في عروقه كتيار كهربائي يجمد خلاياه
ويحنت دماؤه

كأن كريات دمه بحجم كوكب الأرض

ملايين الكواكب الأرضية تسري في شرايينه وأوردته
ورخيم يلومه..

ينظر له واللوم يصفع حدوده بلا رحمة فيحيلها لهيبا حارقا
وبكى عازف..

متى كانت آخر مرة بكيت فيها؟

أكان يوم أن اشتيت شيئا ولم تناله؟؟

كل شيء الآن ملك يمينك!!..

أكان يوم أن تألمت فلم تستطع أن تعلن شكواك؟

لديك من ألسنة البشر ما تستطيع به أن تنظم شعرا في
معاناتك!!..

أم كان يوم أن تركتك أمك ؛يوم أن أصبحت وحيدا ..؟؟؟
هل أنت وحيد الآن ؟؟؟!!

إنك الآن أكثر وحدة عن ذي قبل يا عازف..
لحق دمعته على خده قبل أن تتركه وحيدا هي الأخرى..
ما أن التقطها إصبعه ،حتى تجمدت الكواكب التي تسري
فيه..

لست كالبشر يا عازف ،ولا حتى في دموعك..
الكل يقطر من عينيه الماء
وأنت..

أنت تبكي ترابا... !!!

ما جال بخاطره حينها لم يكن موضع استفسار..

لا الفزع يكفي ، ولا الذهول ، ولا الرعب

إلا أن الجائل الأهم بجواري رعبه كان صاحب النجوم!!

سيذهب إليه الآن .. حالا..

ذهب إلى طريق تتعمد إيذائه

وصخور غاضبة

وأرض كنس الزمان معالمها كنسا..

وبلدة كبلدته ، ولكن بلا بشر

ثم هاهي قبضة صاحب النجوم ؛ تطيح بما بقي من اتزان

عقله ، وتسقط كرامته

،ودمائه ،ولهفته أرضا ؛ فأصبح كله ذهولا ، والكواكب

ترحف في عروقه زحفا

مؤلما..

"قتلتها

— من ؟ ؟

— قيثارة

— هل تستخف بي !!

— أنت من استخفت بنفسك ..قتلته

— لكنها..

— لكنها ماذا أيها التعس ؟ ؟ ..قيثارة ليست كما تراها

— ها ؟ ؟ ؟ ؟ !!!

_ ليست صخرة هي .. ولم تكن يوماً ما .. أظننت حقاً
أنك تتحدث لغة الصخر؟؟!! .. أظننت أن الصخر سيتنازل
ويجادث أمثالك؟؟!!

_ أ..أتعني.. قيثارة .. قيثارة ؟

_ مثلي و مثلك..



II

جلس صادق عند بائع البذور صامتاً ، تتعلق عيناه بالأفق
خارج المتجر الصغير و يبتسم
أسبوع و بعض أسبوع مضى ، و ما زال ذلك اللقاء ينعش
الدماء في عروقه فتجري إلى قلبه نشطة ، سعيدة

كم مرة تذكر ذلك اللقاء عند قلب الساحر؟
لم يبلغ أهل العد و الحساب بعد هذا المبلغ
تتسع ابتسامته و هو يرى نفسه واقفا عند الشجرة
الخجول لاهثا ، مرتبكا ، منتظرا اشراقها عليه من جديد
أطرق يضحك في خفوت ، و هو يستعيد ما قاله لها
كيف مد يده أمامه يستوقفها حين وصلت
كيف كان يلهث توترا ، و انفعالا
كيف تداعت الكلمات منه حارة باكية
"إنتي أعتذر"

عن كل فكرة سوداء عنك طافت برأسي ، تغذي خيالاتي

الحمقاء

عن كل نية سوء حركت في خلجة تنوي لك شرا ، أو لم
تحرك

عن كل قول منافق حط على أذنك ظاهره فيه الود ، و
باطنه من قبله العدا

عن كل كلمة سمعتها عنك تلمست فيها ما أنت منه براء

عن سؤال خدش كبريائك ، أو لمحة انقبض لها فؤادك

عن كل ما مسك مني بغير خير عن عمد ، أو غير عمد

أعتذر عن وعد باللقاء أخلفته جبنا ، و هروبا

عن تجاهل ، واختفاء بلا عذر ؛ سوى خوفي من نفسي على

نفسي ، و عليك

إني أعتذر؛ وكفي على قلبي تحمل قسما لك بالتوبة، و
وعد لك بالثبات، و عهد علي بالوفاء حتى تغادرني الحياة، و
تستقبلني الأرض في طياتها"

تأمل بائع البذور أذن الفتى و قد اشتعلت احمرارا فهز
رأسه متبسما و تابع عمله بينما استعاد صادق جمود وجهها و
هي تقول

" ما جئت لهذا "

تذكر كيف كان ردها صادما، و كيف هوى خافقه، و قد
صمت نبضاته خوفا، لكنه كان قد عقد العزم على التراضي
،وأعد نفسه لاستقبال ما يرضيها أيا كان

"هئندا أمامك .. ألقى علي ما يرضيكي "

" إن هو إلا سؤال واحد "

" و أنا له مجيب "

رفع صادق رأسه نحو الأفق ثانية ، و التمتع في عيونه دمعة
تودع الشمس الراحلة ، و هو يستعيد سؤالها الذي لم يسأله
أحد سواها

"ماذا فعلوا بك ؟"



لما عاد ابن الراعي هذه المرة ؛ انثبه لعودته أهل البلدة جميعا
على غير العادة ؛ ذاك لأنه -على غير العادة أيضا- عاد على
غير ما ذهب ، و على غير ما يعود كل مرة
ثيابه ناعمة الملمس ، ذهبية التطريز
يداه التي ناءت بما حملت من ذهب ، و جواهر

تلك الجرار التي يحملها الخدم حوله ، ينثرون منها ذهباً و
فضة ؛ فيتدافع سفهاء البلدة يقتنصونها من على الأرض مهملين
لصاحبها

و كأن صاحب البحيرة قد بعث من جديد بكنوزه ، و
خزائنه

و أقبل بعض أهل القرية متزلفين مدهنين

و أدبر البعض الآخر عنه منكرين له متحسرين

و تسائل الجميع "أنى له هذا؟"

فيعلن أبوه أنه من يذهب إلى صاحب النجوم فلن يكون

ابن له أبدا

و لم يبال ابن الراعي

قد أسكره رحيق النشوة بالغنى ، و التلذذ بإقبال الناس

عليه

هو يعلم أنهم منافقون ؛ لا ييغون منه إلا ما يلقي عليهم من

نقود ، و حلي ؛ لكنه لا يبالي ؛ ليسو هم من ينشد ودهم على

كل حال

و أبوه ؟

سيأتيه يوما ما و لا شك ؛ عندما يرى ما أضحي عليه من

سعة و نعمة

فيناديه مناد داخله يقرعه في خفوت " و إن لم يفعل ؟ "

فيهز الفتى كتفيه كبرا .. فليذهب حيث ألفت هو و فقره و

جماله

إنه لم يكن معه حينما ذهب إلى صاحب النجوم

كل ما فعله هو تحذيره من الرجل ، و من لعناته التي يلقيها
على الناس ، و التي لم ينجو منها أحد
يا له من جبان ، معدوم الحلم!

ألا يرى ما ابنه فيه الآن من غنى ، و جاه ، و وجهة؟!
و يقول له بائع البذور مستخفا " زيف حائل ، و كذب
زائل "

فيضحك الفتى ساخرا ، مستهزئا بهؤلاء الذين قصرت
عيونهم عن رؤية الأفق ، و أحنى الهوان أعناقهم ؛ فلا يرون
إلا ثرى ، و طين

و يسأل عن صادق ؛ فيهنز الناس أكتافهم
و يسأل عن زهراء ؛ فيتبادل الناس نظراتهم
لم لا يجيبه أحد؟!

فيقول أحد أصحابه الجدد " دعهما و شأنهما ؛قد غبت كثيرا
، و طال سفرك ، و الآن البلدة كلها تعرف ، و تبارك "
_ تبارك ماذا ؟

_ صادق و زهراء ؛لقد خطبها الفتى من أبيها الرجل
الطيب

أي عبت هذا ؟

من خطب من ؟

من هو ذاك الفتى صادق ؟ و ماذا يعرفون عنه ؟

فيجيبه باقي ضمير لديه " أفضل مما يعرفون عنك "

ينفض ابن الراعي تلك الخاطرة المخزية

و ماذا عني ؟

لما لا يكون أنا ؟

إنها حلمي و مطمعي منذ أن وعيت إلى الحياة

كيف ترتضي غيري لها ؟

و يغزو نفسه الحقد ؛ فيضع عباءة الكره و الاتانية على

بصيرته ؛ فيعميها عن الحق

" هذا الفتى صادق .. أقسم بما أملك - و ما هو بقليل -

إنه يدفن في ماضيه شيئا أغبرا و إني له لكاشف .. و لعله نال

منها ما لم ينله أحد قبله "

و يختلط الظن باليقين لديه يقلبهم جشعه في وعاء الضغينة

فيقع سوء ظنه عنده موقع القينه فيصدقه و يغلي صدره به

غضبا و بغضا فيعلن

" إن لم تكن هي لي ؛ فلن تكون لغيري "



و تقول المربية داهشة " لقد سافر ابن الراعي ثانية !! "
فتضحك زهراء " ذهب ابن الراعي .. عاد ابن الراعي .. لا
لنا في هذا و لا في ذاك شأن "

" لا أظن المرة ككل مرة ؛ كان قد ذهب مدقعا ، و عاد
يقطر غنى ، ثم لم يلبث أن سافر ثانية قبل أن ينتهي خدمه
من حط متاعه "

" و ماذا تعنين ؟ "

" هذا الفتى لا خير فيه ، و لا خير يأتي منه .. قلبي يحدثني
أنه ينتوي شرا "

" و ما لنا و الفتى ؟ ! "

تنظر لها المربية ، و تفصح عيونها عما تخشى شفتها البوح

به

هي تعرف مطمع الفتى ، و تخشى رحيله

و في قلبها تتردد مع خفقاتها دعوة و جلة " فلتأت الأيام

المقبلة بخير و سلام "



و يحط ابن الراعي رحاله في تلك الأرض ، بعد طول بحث

، و طول سفر

و يتلفت حوله

ما كل هؤلاء البشر !؟

يخترق الحشد متأففا ، يدفع هذا ، و يلکز هذا ، حتى وصل
إلى مركز احتشاد الخلق

كانت المرأة تقف في المنتصف ، ممسكة بتلايب رجل
مزري الحال ، رث الهيئة ، لا تكاد قدماه تستقران على موضع
في الأرض ؛ إذ تلتفان حول بعضهما ، و عيناه مسافرتان إلى
عوالم أخرى

و استنكر ابن الراعي

" كل هذا الحشد من أجل امرأة فظة ، و سكير!! "

سأل رجلا بجانبه

" ما كل هذا الحشد؟ "

تأمله الرجل و قال " غريب أنت؟ "

— بلى

__ لذا لا تعرف .. إنها أكثر من نبغض هنا ؛ تلك السليطة
و ذاك المخبول ، معدوم المروءة
__ من هما ؟

__ زوجان هما .. و الحق أقول ؛ لا أجدهما إلا خلقا لبعضهما
لقد نجا الفتى إذ هرب منهما
__ أي فتى ؟

__ ذلك الفتى الذي كانا يريان .. كانا يظنان أننا لا نعرف
أنهما سيئان إليه .. الكل كان يعرف ، لكن من يأبه للقيط ؟
اشتعلت عين ابن الراعي
اتراه ...؟؟؟

" ما اسم ذاك الفتى المسكين ؟ "
و ابتسم ابن الراعي



تشب الشمس فضولا مقاومة الغروب الذي يشدها بعيدا
، و تشتعل شغفا ، و تتساءل في غيظ

" لم يلتقيان في الغروب ؟ ما ضمير الشروق ؟ "

حينها سيكون لديها كل الوقت لتشاهدهما يتناجيان

و هما عن الشمس ، و فضولها ، و شغفها ، و غيظها لاهيان
؛ يتطلعان إلى خفقات المياه ، تداعب أناملها وريقات لم تنفض
عنها نخلها بعد

يرنو إليها من طرف عينيه ، و يبتسم

و ترنو إليه من طرف عينيها ، و تطرق نجلي كشجرتها

الأثيرة

إن من يرى صادقاً الآن لا يعرفه
ما عاد الوجوم يقبض على ملامحه ، و تبرأ حاجباه من
عبوسهما

و أصبح له صديقتان ؛ أرضه ... وابتسامته
و هي ؟

هي تتجاوز حد الصداقة ، و حد القرب
تتجاوز كل شيء

هي نجاته مما مضى ، و رضاه بما هو حاضر ، و شوقه لما هو
آت

كانت عطر أيها
و هي الآن عطره

لكم أراحه ذلك الثقل ؛الذي ألقاه عن ظلمات روحة عندما
أفضى إليها بماضيه

، و كم أدهشه كونها صدقته

لم تخشاه ، و لم تنفر منه ، و تنصرف عنه

و قد زاد دهشته دهشة و انهارا ؛غضبتها له ، و مواساتها

لأمه

و لقد سألتها ضاحكا ذات مرة " لقد كان محض فضول ..

أليس كذلك ؟

فأجابت " ما كان سيغير شيئا ما حكيت .. هو الفضول ، نعم

.. لكن زاد عليه بعد ما قصصت يقيني فيك "

استدار يتأملها باسم ثم ناداها " زهراء .. "

التفتت له باسمه فأكمل " ما هذا باسم ؛أنت حقا زهراء "

اتسعت بسمتها ، و تشرب خدها من وهج الشمس القاني
، و قالت " و أنا لست أراك إلا "
" صادق "

تصلب جسد الفتى
و توقفت دماؤه عن السعي نحو فؤاده ؛ إذ هرب منه نبضه
؛ لما اخترق ذاك النداء أذناه
ذلك الصوت...

استدار الفتى ، و اتسعت عيناه رعبا
" أمي"

كانت قد تخلت الشمس الجبابة عن فضولها منذ مدة ، و
تركتها وحدهما دون قمر ، هذا النذل قد تخلى عنها أيضا
النيران و الليل

و الحاج الطيب يهدر صوته غضبا " زهراء !!هنا ؟!! في
تلك الارض الملعونة ؟؟؟!! "

تتعالى الدقات تزيد من وطأة الخوف بينما صاحت المرأة

الفتاة

" صادق !! أنت !! لشد ما أجزلت الجزاء لأمك حقا يا فتى

؛تغتصب و تقتل و تهرب ،تاركا أمك لشماتة الشامتين ،و

تقريع اللائمين .. يا خيبة أمل عيوني .. أتراك فاعل بتلك البنية

البريئة ما فعلت من قبل ؟! ما نجت منك الفتاة ،و ما

شبت ،أما في قلبك من خزي أو توبة .. وا حسرتاه!! "

يصرخ أحدهم في الجمع أن أمسكوه

و تصيح إحداهن في النسوة أن أبعدها عنه

و يقلب صادق عينيه في الحشد أمامه

لا أحد معه

لا أحد يسمع، و لا أحد يصبر

و لا يضيره هذا؛ فقد اعتاد ذاك، و لهم في ذلك عذر؛ فما

زالت معرفتهم به طفلة

لكن زهراء ؟

كيف لهم !؟

و ينظر لها ملتاعا، فيجدها شائخة ثابتة

لكنه الآن يعرف أكثر

إنها تتمزق

تلك الدمعة البغيضة في عينيها يعرفها جيدا

دمعة الظلم، التي ظلت تتغذى على ناظره عمرا

تلاحقت أنفاسه ثورة لها ؛فالتفت للجمع الأحمق مدافعا

عنها

إلا أن المرأة السليطة استبقته

"ماذا تنتظرون ، و ماذا تظنون ؟ أو تجهل الأم ابنها ..

خذوها عنه ، و خذوه عنها. ما نجت إن نجا..ما نجت إن نجا "

و تجمع حوله الرجال ممسكون به ،يجرونه جرا إلى محبسه

؛حتى ينظروا ماذا هم به فاعلون

و يأخذ الرجل الطيب ابنته و يذهب مغاضبا حابسا إياها

في منزله

و يغمض ابن الراعي عينيه انتشاء



و يفز صاحب النجوم من نومه مدعورا يلهث

"قيثارة!!!!"



الفصل السابع

من ساء ظناً بمن يهواه فارقه

"الشريف الرضي"

I

قيثارة ..

ذات الخد المرمرى ، والضحكة البلورية

قيثارة ..

عيناها شفافتان رائقتان رقرقتان ، كانسياب الماء في شلال

صغير

قيثارة ..

صوتها كقطرات المطر الرقيق على نافذة بلورية
قلبا حيك من أحلام النعيم ، وأناشيد الزهور

قيثارة ..

تنام وتحلم به كل ليلة ، وتصحو تحلم به كل صباح ..
وهو أيضا ..

هل هناك من هو أسعد منه حظا ؟!!

يحب قيثارة .. وتحبه قيثارة

لا منافس له في حلبة الهناء ..

قيثارة الجميلة تخرج ؛ فيغمض الكل أعينهم راحة ورضا

عينها تتبسمان له ، ليس له فقط فقد خلقت مبتسمة
، لكنهما تبسمان له أكثر ، تلمعان أكثر ، تترقرقان أكثر ..
قيثارة يعرف الجميع قصتها معه

عندما تشرق من شرفتها عصرا لتغني ، يعرف الجميع لمن
الكلمات ومن لحنها

حسنا .. لا بأس ، ولا حسد ، على الأقل نسمع ذلك
الصوت ..

قيثارة يزور بلدتها الساحر

الساحر تسحره قيثارة ؛ فيريدها لنفسه

إنها مقتنى فخم ، نادر ..

وقيثارة لن تذهب معه ..

قلبا سيظل هنا ، عقلها سيظل هنا ، روحها ستظل هنا

"ستأتين معي بالقوة"

"لا قوة لبشر على بشر، وأنا لست وحدي"

"هؤلاء المحيطين بك خيالات بشر؛ لن يرتد إليهم طرفهم

إذا مزقتك أمامهم"

"معي من أحب، وهو يكفيني"

"ليصير صخرا من تحببته هذا إن لم تأتي معي"

"أتظن أنك إن مسسته سأطيعك؟!.. لن تمر على جفنه

حتى؛ وإلا لأصيرن أنا صخرة"

قيثارة الشبيهة بكف رضيع تقاوم!!

وهو معها لا يدع القلق يمر على عتبة نفسها..

والساحر لم يعتاد ألا ينال ما أراد..

في يومها ترى من تحب يدفع عنها مكر الساحر ، وفي ليلها
ترى الساحر يحيل حياته عذابا وقنوطا
وفي حلمها تراه والسماء تلتف حوله ، تشتعل حوالبه
الأجرام هاربة ، و تحتضنه الشمس ، وهي تقف بعيدا تدفنها
الرمال حية..

وأدرت قيثاره مصيرها ومصيره..

لينتهي كل هذا ، ولتكن اللعبة لعبتها

و تذهب قيثارة إلى الساحر

"أيها الساحر.. سآتي معك على شرط"

"وهو؟"

"إذا افترش الليل السماء ، ونام هو ؛ مرر كفك على عينه

النائمة ، ولتمنحه ما يجعله يحيل اليأس آملا ، والطامع مبلسا"

وقد حدث

ما إن مرر الساحر يده على جفنه ؛استيقظت رؤيا قيثارة
في رؤياه

ولما انتفض فزعا ،ركض إلى قيثارة ركضا ،يللم ثوبه المنجوم
-الذي وجد نفسه ملتحفا به- فوجد الساحر يحمل في يده
قطعة صخر ،ولا وجود لقيثارة

لما رآه الساحر قذف الحجر عليه فأسقطه وصرخ

"أين هي ؟؟"

هم ليقف ،وأمسك بالصخرة ليعدها ؛فتناثرت أنفاسه

أشتاتا

تطلع إليها وحديثها ينساب في روحه فيمزج ألمه بجذنه

،وغضبه بعذابه ،و خده بدموعه

وفهم الساحر

قيثارة احتالت على محتال

أي شيء هي ؟؟!!

جذبها الساحر إليه

وضع يده عليها يستنطقها ؛ فلم تنطق

صرخ صاحب النجوم

"هاتها"

أحكم الساحر قبضته عليها ، وأغمض عينيه

ومن أعماق روح سوداء انبعثت أدخنة ملعونة لم يرى في

مثل سوادها أحد ، بينما يدوي في أرجاء الكون هدير قائل

" ستمسها ولن تملكها ؛ وإلا استحالت رمادا ولن تصبح لك
؛ حتى يعيدها إليك خل ؛ لها وفي ، وعليك مشفق "

انقشع الدخان

ولم يعد هناك من أحد حوله

لا أدخنة

لا ساحر

ولا قيثارة..

وتمضي الأيام .. ولا يمضي الحزن

وينتشر الخبر .. ولا تنتشر الشفقة

ويهرع إليه الطامعين .. ولا يطرق بابه مواس

أي عالم هذا ؟؟؟!!

ألم تكن تلك قيثارة التي نثرت عبير روحها عليكم؟!
بحق بسمة تبسمتها في وجه أحدكم؛ تذكرها
بحق ضحكة بيضاء أزاحت سوادا أحاطكم؛ تذكرها
بحق نعمة منها أسكنت روحا قلقة، أو رتبت خفقات قلب
مبعثرة؛ تذكرها

لقد اختار الساحر شرطا مستحيلا حقا
أي خل وفي لها في الكون؛ وقد خانها من عاشرتهم؟!؟!
أي مشفق عليه؛ والعالمين بحاله لا يبالون؟!
فلتأخذوا سحري كله إذا

و لكن لتأخذوه بشرطه؛ فكل السحر مشروط
إن لم تكونوا معها أوفياء، فلا كنتم مع غيرها

وازدحمت داره ، والتمسه الكل في رغبة أو شهوة
وقبل أن يمنح أحدا ما اشتهاه ؛ ألقى عليه شرطا
وقبل أن يسمع أي منهم الشرط ؛ يفر فرحا وسرورا
وامتلأت البلدة كبرا ونفورا
كل من تحقق له مشتهاه ترك البلدة هاجرا من له فيها
وكأنه طاعون دب فيها
لم يعد فيها من أحد سواه
أصبحت كل البيوت بيوته ، وكل المحال باسمه
أما هؤلاء الفارين ؛ فما كادوا يبلغون بلدة أخرى ، حتى
صارت دماؤهم رمالا ، ولحومهم أحجارا و صخورا ، ومرادهم الذي
باعوا به حياتهم هباءا منثورا

صخور غاضبة ساخطة

وبقي هو وحيدا ينتظرها

ينتظر خل لها وفي...وعليه مشفق!!!



II

اعتدل صاحب النجوم يلهث و قد استحال حلقه صحراء

قاحلة

قيثارة زارته من جديد

عام كامل قد مضى منذ آخر مرة رآها

عام كامل لم تزر رؤياه فيها مرة

عام كامل ظن أنها غادرت الدنيا

لكن

هاهي ثانية تأتيه .. تناديه

و من ذلك الفتى الحبيس و تلك الفتاة مهشمة الروح ؟

و ذلك النداء الذي ظل يتردد في رؤياه

"ما زال القلب ينبض في أرض ابن الراعي

حرره .. اجعله يزهر..."

ابن الراعي ؟

أليس هو ذلك الفتى زائع النظرات حقير النفس الذي أتاه

من قبل يرتجي ما ارتجاه من قبل أهل بلدته المهجورة ؟!

" ما زال القلب ينبض في أرض ابن الراعي

حرره .. اجعله يزهر"

نهض صاحب النجوم يعد متاعه و يتجهز للسفر



"سيدي الحاج "

التفت الحاج الطيب إلى المربية متجها فتابعت دون أن

تبالي بما تصرح به انفعالات وجهه

"سيدي الحاج ، إن زهراءك تذبل ، عطرك يخبو عطرها"

" لقد ذهب إلى من استنزفه فلا تلومن إلا نفسها"

" كذبوا و كذبت سريرتهم"

التمع الغضب في عينيه و أكملت هي غير ملتفتة لغضبه و

تهجمه

"إنتي أعلم فتاتي كما أعلم اسمي و أعلم أنها لم تقرب حتى ما
ظنوا فيها ، و إنتي لأعجب كيف تصدق فيها ما يدعون و أنت
أبوها!!!"

" لقد رأيته بأمر عيني و هي معه في تلك الأرض الملعونة "

" و لو كنت رأيته في قلب الماء هناك ما ظننت فيها إلا

أنها نزلت لتغتسل "

التمت دمة في عين الحاج و هو يتأملها متعجبا من يقينها

في ابنته بينما تابعت هي

" إنها زهراء .. زهراء ابنتك التي تعلم - أو كان يجب أن

تعلم - علم اليقين أنها لا تنحط إلى ما أنزلوه بها من دنس ..

زهراء الروح و العقل ، زينة البيت و البلد و مركز غبطتهم و

محل حسدهم . كيف لا تعلم كم حاسد نام هنيئاً ليلتها و هو

يراك تنهش فيها معهم و أنت أبوها؟! ، كيف تركتهم يرجونها
بأباطيلهم و كان أحرى بك أن تقف حاميا مدافعا ؛ بل وقفت
ترجمها معهم ليحل محلك الفتى صادق "

" أوتدافعين عنه أيضا؟! "

ضغط الحاج على فكة غيرة و غضبا

" بلى .. "

"...."

" هذا الفتى أنت نفسك أخذت ابنته من أمام عتبة بابه
تلك الليلة ؛ أخذتها كما تركتها لم يمسه حينئذ فلم يمسه
الآن؟! ؛ لو كان به ما يقولون لكان فعل بها اتهموه أنه فعله
بغيرها حينها و قد كانت هي أمامه ملقاة هشة لا يعرف مكانها
أحد . ألم يكن سهلا عليه أن ينال منها ما ادعيتم زورا ثم يلقيها

حيث شاء و لم يكن لأحد أن يعرف ما فعله .إنه هو من
أخبركم بمكانها ، و لقد تركها دون حتى أن يغسل الوحل عن
وجها حتى لا يظن به أحدكم سوءا لكن أبوا و أبيت أنت إلا
أن تخيبوا ظنه فيكم و ظنها فيك "

طأطأ الرجل

لم يعد يعرف ماذا يشعر و بم يرد

خرجت من المربية زفرة و لان صوتها و هي تقول

"إن روحها سقيمة و يأي كبرياؤها أن يعلن كسرتة ،

دموعها تأبى الإفصاح عن نفسها حتى الآن ، و ظني أنها

تنتظر . اذهب إلى ابنتك و اربت بيد الثقة على كتفها المثقلة

.. دموعها تنتظر كفك لتمسها فاذهب إليها و أزح عنك و عنها

هم الظن و سوءه "

تطلع إليها الحاج قليلا و طاف عقله مفكرا ، ثم مسح كفه
بكفه و نهض خارجا من البيت ..



أضواء البدر طرقات البلدة النائمة على تهويده الدقات التي لا
زالت تمحوا الصمت عن ليل البلدة و سكانها ، بينما غطت
الظلال وجه الرجل الذي وقف يراقب عن جنب سجن الفتى
الذي أرسلته قيثاره اليه

كان ألف سؤال يهمهم همهمة مزعجة في عقله إلا أنه كان يعلم
أنه لن يجد الإجابة الآن

يجب أولا أن ينقد الفتى ..

هذا ما قالته قيثارته الغالية ، و هذا ما سيفعل ..

ظل واقفا ينتظر خروج ذلك الضيف الذي سبقه إلى
الفتى الحبيس حتى رآه يخرج مسرعا
وقف هنيهة يفكر أيدخل للفتى أم يتبع الرجل الآخر ثم
استقر فكره على أن يتبع الرجل المثلث ذاك
مضى خلفه يهرب من مصايح القمر الكاشفة يتتبع خطواته
حتى دخل الرجل زقاقا مظلما
دخل خلفه فرآه يدخل بيتا تاركا الباب مفتوحا
اقترب صاحب النجوم قليلا من الباب المفتوح يتلصص
عن من دخله ثم أجفل حين سمع الرجل ينادي
" ادخل و أغلق الباب خلفك "
كاد صاحب النجوم أن يهرب إلا أن الرجل قال
" لو كنت جئت منقذا صادق فادخل يا صاحب النجوم "

تسمر صاحب النجوم في مكانه
كيف راه الرجل و من أين يعرفه ؟
" ادخل "

انتفض صاحب النجوم من صيحة الغريب الآمرة و دخل
مسرعاً

لم تكشف اضاءة البيت الخافتة عن كثير إلا أنه رأى
الرجل واقفا امامه يعقد زراعيه أمامه و يسأل
_ أتريد أن تنقذه ؟

" ن .. نعم ، لـ .. لكن كيف .. كيف تعرفني ؟!
" أنت صاحب النجوم .. من لا يعرفك .. أنت ذلك الذي
يصب اللعنات على من صب عليهم النعم من قبل ..
_ و من أنت ؟

— خليل

— و ما شأنك بالفتى الحبيس ؟

— إنه لا يعرف ذلك بعد، لكنني صديقه

— و لم لم تخرجه ؟

— إنه لن يهرب .. ليس قبل أن يبرئها

— من ؟

— أجئت تنقذه أم لا ؟

— و ما أدراك أنني جئت له منقدا ؟

— إن لي في الناس نظرة ، و برغم أن أحدا لا يذكرك بخير

إلا أنني أفهم ما تفعله لكن البشر لا يحبون أن يلوموا أنفسهم

حتى و إن كانوا يعلمون أنهم المخطئون ، أما هو فلن يؤذيه

شيء أكثر مما هو فيه على الأقل حتى الآن. "

تبسم صاحب النجوم حزنا .. ترى ماذا كان سيحدث لو
كانت قيثارة قابلت هذا الرجل ؟

_ حسنا يا خليل ..إذا فهو لن يهرب و لن يخرج من
سجنه حتى يرى تلك التي لن تتحدث عنها .. فماذا إذا ؟

_ سأحضر أنا براءته إليه

أوماً صاحب النجوم و جلس يستمع إلى ما يريد أن يفعله
بائع البذور



الفصل الثامن

وَأَتَيْتَ مُعْتَرِفًا بِمَا صَنَعْتَ يَدَيَّ ..

إِنِّي إِذَا أَذْنَبْتُ لَا أُسْتَكْبِرُ

"عبد الله زمزم"

I

ليلة عتاء

وروح عجفاء

ونفس تناثرت أشلاء

كان هذا زاده في رحلة العودة .. يحمل على ظهره أيضا هم
جرمه الذي ارتكبه جهلا وكبرا..

لم لم تخبره!!؟

ومتى سمعها لتخبره؟!!!

ولقد طلبت منه العودة لصاحب النجوم .. لربما كانت

ستخبره في الطريق..

لكنه لم يهلها..

تكشفت له بعض مشاعر كان قد أهال عليها تراب الخسة

منذ زمن ..

كم كان يألؤها!!

ألم تكن هي وحدها وعاء حكاياه؟!!

ألم تكن وحدها من تحملت بشاعة صوته؟!!

بمطرقة ساخنة أخذت كلماته الأخيرة لها تلهب أذنه طرقا ..

"لقد صرتي ثرثرة"!!

متى كانت ثرثارة؟؟!

الحق يقال لقد كنت أنت الثرثار

كم حكيت لها .. كم أخبرتها..

ما إن ملكت لغة البشر حتى صرت تتكلم وتتكلم بلا
توقف فلا اعتادوا عليك ولا اعتدت عليهم .. فقط أملت أن
تكون منهم فلم تكن ..

حلمت أن تحكمهم ، فحكمتك حاجتك اليهم ..

أبهرك إقبالهم عليك ، ولم تعي أنه إقبال محتاج لا مرید

لو أحبوك لحادثوك

من سمعك من البشر يا عازف؟؟!!

كم مرة قلت لزوجك البراقة شيئاً واستمعت حقاً؟؟!!

كم مرة أردت من أحد شيئاً ولباك؟؟!!

كم صديق لك منهم؟

لم يكن لك من صديق سواها .. وما صاحبك حق صحابتك إلاها..

والآن وقد وأدت خلك الوفي من لك؟؟!!

من يبالي بك هناك وعائد لمن؟؟!!

فلتكمل رحلتك إلى دارك .. وانعم قليلا بزوارك فهذا ما

بقي لك..

ظل شجته رفيقه طوال طريقه حتى أزاحت الشمس ستار

الأمس المرقع بالنجوم

وأزاح التفكير راحة البال

على باب بيته كانت فكرة واحدة تملكه

إن لم يبالي به أحد فهناك شخص يبالي هو به

رحيم ..

لن يدعه يذوق ما ذاقه هو ويرى ما رأى هو

لن يحتاج البشر بل سيحتاجه البشر .. بل سيريدونه ..

سيتطلعون له..

إن أنكر قيثاره من يعرفها فسيذكرها كل من لم يعرفها

لامس روحه بعض من سكون بعد ذلك القرار؛ فدلج من

باب بيته باحثا عن ابنه حتى وجده..

أراح ركبتيه على الأرض وجعل عينه في عين ولده ولامس

كفه كفه وبلغة لا يعرفها سواهما قال عازف

" لتعلم يا بني أني أحبك .. وأنت عندي كصوت ظل

يتردد داخلي ولا يسمعه أحد حتى سمعته صخرة فأذابت
وحدتي وصرفت أشباح عزلتي .. أنت صوتي الذي لم يسمعه
سواها .. صوت عازف لا صوت حصة .. ولإن ولدت أنت
بلا أوتار تهتز داخلك فيعرف الناس ما يعتمل في عقلك
وقلبك فسأجعل لك أوتارا تهز قلوب الخلق فتعرف أنت ما
يعتمل في عقلهم وقلوبهم دون أن تهتز أوتارهم"
وترك ابنه وانصرف إلى غرفته فأغلقها عليه تاركا ابنه مبتسما
منشرح الصدر..



II

التمعت حبات العرق على جبينه المتجهم بينما انزلت بعضها
إلى صدره الذي يعلو يهبط غضبا و تحفزا

من يراه يذرع زنزانته جيئة و ذهابها يخشى القرب منه و
التحدث إليه و قد بدا و كأنه على وشك الاشتعال إذ
انعكست نيران المشاعل التي تضيء الزنزانة على زراعيه
المتوترتين

يجب أن يخرج من هنا

يجب أن يذهب إليها

يجب أن يبرئها

إنه لن يهرب من هنا - كما حاول أن يقنعه بائع البذور -
من دون أن يدفع عنها ما قيل في حقها بسببه

و إن كان يريد أن يخرج من هنا فإنه سيخرج إليها و إليها
فقط

فليلقوا عليه من الاتهامات أسوأها و من الجرائم أشنعها و لا
ضير

هم لن يأتوا بجديد على أية حال

ربما أصابه الملل أيضا من تكرار اتهامه بما لم يفعل

حقا لم يعد يبالي

أو بالأحرى من يبالي بها لا تظن به سوءا و لن تفعل فلن
تحرك كلماتهم الجارحة و نظراتهم الحارقة في نفسه إلا كما تحرك
نسمة صيف مرهقة في شجرة جرداء

أما هي

تلك التي إذا مست الخمر طهرت دنسه و إذا استنشقت
نسمة انتشت النسمة و انتعشت

كيف لهم أن يلقوا عليها كلمة يرف لها جفنها

كيف تهبط عليها نظرة سمجة من عين وقحة تؤرق هدوء
خلجاتها

يجب أن يفعل شيئاً ..

فلتحترق روحه إن لم يرفع عنها ما وضعوا عليها من وزر
تتصارع أفكاره في رأسه غضبا و حيرة فتلهث أنفاسه انفعالا

كيف يخرج من ذلك المحبس الملعون!؟

أراح جبينه على ذراعه المستند إلى الجدار في إحباط و قد
أعياه الفكر و تلاقت حبات العرق الهابطة من جبينه بحبات
الدمع الهابطة من عينيه المغمضتين فامتزجتا هما و حزنا

" أيها الفتى !! "

التفت صادق مشدوها

لم يكن يتوقع أن يزوره هو بالذات

" أنت !! "

اختلج قلبه خوفا و لهفة

بالتأكيد هو يعرف أخبارها .. إنه أبوها فمن سواه

سيعرف؟!!

سأله متلهفا

" كيف هي ؟ أين هي ؟ ماذا فعلوا معها ؟ "

لم يرد و ظل يتطلع للفتى المتلهف أمامه متجهما

كان الرجل صامتا .. غاضبا

و فطن صادق لما يدور في خلد الرجل فسرى الغضب في
خلاياه ، لم يكبح جماحه سوى ضميره الطفل الذي ظل يردد
داخله " إنه أبوها "

أغمض عينيه و بصوت كاظم للغيظ محتقن بانفعالات لا
تحصى قال

" لم أنت هنا ؟ "

" لا ، بل لم أنت هنا ؟ ماذا فعلت أنت بها ؟ "

تطلع إليه صادق بوجه أخرس من المشاعر ثم قال بهدوء
" لقد خطبتها منك ؛ فما ظنك بي ؟ بل بالأحرى ما ظنك
بها ؛ بابنتك ؟ "

" ماذا فعلت بها ؟ هل آذيتها ؟ هل دنستها ؟ "

" و أي إجابة ستصدق ؟ "

بهت الرجل

أي إجابة سيصدق ؟

هل سيصدقه لو قال أنه آذاها أم العكس ؟

أي إجابة جاء ليسمع ؟

أم أنه جاء ليسمع ما يريد أ يسمع ؟

تطلع الحاج إلى صادق و اتسعت عيناه دهشة من نفسه و

قد اقتحم عقله سؤال آخر

أي إجابة يريد أن يسمع ؟

هز صادق رأسه و هو يتابع خلجات الرجل و صراعات

عقله و قلبه على صفحة وجهه الصادقة

"كان أحرى بك أن تسألها ، أن تسمعها ، أن تصدقها ..

كنت أظنك أكثر حكمة من ذلك "

أطرق الحاج فاقترب الفتى يسأل في خفوت و اللهفة تفيض
في أحرفه

"كيف هي ؟"

"كيف تظنها ؟"

و التمتع العبرات في مقلتي الأب المكلوم

" منذ أن وضعوها على راحتي يوم أطل وجهها على

صفحة الحياة و لم أر منها سوءا ، و لم تر مني شرا . كانت

روحي و ريجاتي ، عطر سعادي الذي نثر شذاه حولي بعد

رحيل أمها ، موضع رضاي و محط ثقتي ، لا أحد يجروء أن

يهمس همسه تمسها ، أو يرنو إليها من طرف دنيء . ثم أتيت

أنت ؛ فإذا بها تخبو و تنحسر ، و إذا بي لا أعلم عنها إلا ما

يخبرني به ابن الراعي .. ابن الراعي !!! ، و إذا بالبلدة كلها

تتشقق سيرتها ؛ فكيف تظنها ؟ "

" أظنها خاب أملها فيك "

و لو كان الفتى قد لكمه لقد كان أهون عليه

تطلع إليه مشدوها

هل يعرف ابنتي أفضل مني ؟!!

خيبة أمله في نفسه زادته غضبا فصاح بالفتي

— و لم يجب أملها بك ؟

— لا

— و لم ؟

__ لقد أخبرتها كل شيء من قبل أن أخطبها منك .. هي تعرفني .. هي وحدها تعرفني

__ أنت تثق في ظننا فيك كثيرا

__ إنها لا تظن في .. إنها تعرفني

__ ألهذا الحد مطمئن لها ؟

__ بلى

في سخريه قال الرجل

__ و أنت . لعلك تحبها أيضا

__ لا ..

__ أيها الوخ .. أيها الـ...

__ على رسلك أيها الحاج الطيب

قاطع صادق الرجل الثائر في هدوء لم يعرف كيف حل
عليه و أخذ يتأمل الرجل الواقف أمامه و يفكر..

كيف يخبره ؟!!؟

أخذ الفتى نفسا عميقا

"إنتي أحب أرضي ؛ صديقتي الأولى و ونيسة وحشتي
حين كنت مستوحشا . أحب كوشي الذي آواني يوم نبذني
الناس و احتوت جدراناه و وحدتي و خيباتي . أحب زروعي و
ثمارها التي تجعلني أشعر أنني أنجزت شيئا ؛ هذا ما أحب ،
أما هي .. هي .. كيف لي أن أحبها ؟.. كيف ؟ و أنا إذا
نظرت إليها أشعر أنها أرقى من أن تحتويها عيوني ، و إذا
تذكرتها كانت أنبل من أن تجول بخاطر من هم مثلي .. كيف
أحبها و أنا لا أعرف كيف يحب المرء ضميره ؟! إنها وخزة في
قلبي تدفعني لمراجعة نفسي ؛ هذا ليس شعورا محببا على

الإطلاق ، لكنني لم أعد أطيق العيش دون هذا الوخز .. إنها .. إنها تصدقني و أنا لم يصدقني أحد أبدا ، إنها ترى في أملا ، ترى في خيرا ، ترى في ما لم أره في نفسي و لم أظنه موجودا بداخلي قبلها .. لقد جعلتني بشرا ، جعلتني حين أجلس وحدي لا أجتز آلام أيام قبيحة شوهتني ، و لا يرتعد قلبي ترقبا لما يحيكه لي حاضري من خيبات ، جعلتني إذا تطلعت للغد أظن بنفسي خيرا . كيف أحبها؟ .. هذا ليس حبا .. لقت كنت ميتا .. أرض سمراء حطم صفحة وجهها ظمأ الظلم فلم يرى الناس فيها إلا قبحا و نفورا ، حتى أتت هي فروت بفيض روحها ظمأ روعي ، و شذبت بأمنها دواخلي .. كيف أحبها؟ كيف لمثلي أن يحبها و هي .. هي"

و احتبس صوت الفتى

انسدلت أستار دموعه أمامه فلم يعد يرى الرجل

علا نشيجه يهدم جدار ثباته فهوى على الأرض يحتضن
وجهه بين كفيه و قد خارت قواه و استنزفت ثأثرته

عادت إليه لهفته عليها فلم ينتظر حتى يهدأ نشيجه و
يستقر صدره فرجع بصره إلى الحاج الطيب سائلاً متوسلاً
" أخبرني كيف هي .. هلا جعلتني أراها مرة واحدة ؟ مرة
واحدة و إن لم ترني هي فقط .. إني فقط أريد أن .. أن .. "

فتح الرجل باب الزنزانة أمام دهشة صادق و قال
" اذهب .. "

ضاغظاً على حروفه غاضباً أن الرجل لم يصدقه بعد
" أنا لن أرحل دون أن أبرئها ... "

أوماً الرجل و قال و قد عادت الرحمة إلى صوته
" هيا .. سأخذك إليها "



الغروب ثانيا

تلك الهالة الحمراء البرتقالية التي تحيط الوجود فتراه داميا
إذا كنت حزينا ، مبهرجا إذا كنت سعيدا
الشمس تدير ظهرها مولية وجهها شطر بشر آخرين و هو
يدير ظهره موليا وجهه شطر المياه الخافقة و يتأمل
يا له من إيقاع رتيب ممل هذا الذي يراه على صفحة الماء
لاشيء يضاهي طبول الحرب التي تدوي بين أضلعه و
الوقت تباطئ حتى أضحي أطول من عمر الأرض
رفع رأسه إلى السماء زافرا لا يدرك تلك التي تستند إلى
أيها تراقبه مع كل خطوة تخطوها

التمع الشفق فوق دموعها و بسمتها الخافته و هي تستعيد
دخول أيها عليها
" زهراء .. "

كان صوته عطوفا كما أعتادته مرتجفا دامعا على غير ما
اعتادته
" أبي .. "

و ارتمت في أحضان أيها تغرق كتفيه دموعا و نحيبا
طفقت يديه تمسح على ظهرها تكاد أنامله تلامسه
إن الرجل لا يستطيع إلا أن يكون رقيقا .. و إنها ابنته
الوحيدة .. و إنها تبكي

انحدرت دموعه تحتفي بين خصلات شعرها و هو يهمس
" لا عليك .. لا عليك يا عطري و ريجاتي .. لا عليك "

امتدت أيادي الرجاء من نظراتها و هي تتطلع لأبيها الذي
طفق يزيل عن وجهها عبراته سائلا إياها

" إنه يقول أنك تعرفينه فماذا تعرفين و لم تصدقينه ؟ "

" هل رأيته ؟ "

أوماً الرجل فأسرعت تسأل

" كيف هو ؟ "

لم يجيب الرجل و علمت أنه لن يجيب

" لقد حكي لي كل شيء يا أبي حينما كان باستطاعته ألا

يقول شيئاً .. كان بإمكانه الكذب لكنه لم يستطيع .. أصدقه

لأنه لم يكن ينوي الصدق بادئاً لكنه انتهى إليه .. إنه يقول

أنتي أعرفه و إنه لصادق بكل ما تحمل كلمة الصدق من معاني

..إنتي أعرفه منذ أن بدأ و جهه يشفي من وجومه ، أعرف

اختلاج قسماته حين يهت ، أعرف كل الصراعات التي مرت
على تعابير وجهه و هو يجاهد ألا يكون هو .. إنه يظن أنني
أنا من غيرت مساره و لا يعرف كم اسمه على مسمى .. هذا
الفتى المسكين حاول بكل طاقته أن يكون ما يقولونه عنه ؛
كاذبا خائنا بشعا ، لكن بذرته لم تحوي ذلك فلم تنبت إلا
صدقا .. إنه صادق يا أبي ، و إنني أعلم أنه صادق ، و إنني أعلم
أنه بريء "

و اتسعت ابتسامه الرجل الطيب و لم يستطع تكذيبها و
قد رأى بعينه ما قالت ابنته و اختبره هو في نفسه منذ قليل
مع الفتى

مسح على رأسها و قبلها ثم قال

" أتعلمين أنه عُرض عليه الهرب لكنه أبى إلا أن يبرئك

أولا؟ "

أضاءت السعادة وجه الفتاه يكمح جماحها الحياء من أيها
فأطرقت مبتسمة

" إنه ينتظرنا "

" أين ؟ "

" أنت تعرفين بالطبع .. "

و هاهي تنظر إلى توتره و تلمه في انتظارها راضية

و قبل أن تناديه التفت هو و رآها

ذلك الوقت الذي كان أبطا من عمر الأرض توقف

ذلك النزف السماوي الذي سال على صفحة المياة أضحى

عقيا نثره الكون على الأرض المسكينة

تلك الطبول التي كانت تدوي بداخله خفتت

و تلك الأنفاس المتلاحقة عديدة الصبر تجمعت في تهيدة
ارتياح عميقة هادئة

ارتخى جفناه و تراخت قدماه فجلس جوار النبتة الحية
يتباهى بشجاعة دموعه

" زهراء "

و لم يقل غير ذلك



عندما خرج ابن الراعي من بيت أبيه مطرودا تلك الليلة
_ ككل ليلة _ كان الغيظ قد بلغ به مبلغه

لفحت أنفاسه المشبعة بالقنوط هواء الليل البارد

لقد فتحت له كل أبواب البلدة إلا بيت أبيه و بيتها

بعد كل هذا

برغم كل ما فعله و ما أراه للناس

ما زال أبوه يلفظه كأنفاس الميت

و ما زال بيتها محجوبا عنه بحجاب النفور

اشتعلت أفكاره حنقا و إحباطا

أي شيء يفعل بعد كل ما فعل ؟؟؟!!

لقد سافر إلى أقصى الأرض و عاد مثقلا بكنوزها بعد أن

لم يكن يملك من حطامها إلا ثوبه المرقع الذي يوارى جسده

أضحى له شأنًا و رأيا بعد أن كان حقيرا مجهولا

و بعد أن كان الكل ينبذه أضحى الكل يطلب وده

فماذا يريد أباه بعد ؟!!

أطلت كلمات أبيه تصفع أذنه فتلهب روحه

" لا نفع من الحديث معك و لا جدوى من نصحك .. لكم
أخبرتكم أنني لا أريدك غني الجرار فقير الجوار .. لا أريدك
ممتليء الجيب فارغ النفس .. أردتك رجلا ؛ روحك أغنى من
الذهب ، نفسك أصفى من الفضة و كرامتك أرقى من الماس
، لكنك أبيت إلا أن تكون آسن النفس ميت الروح ..
اذهب و ما تملك و لا تفرح بهؤلاء المرائين حولك ؛ لن تراهم
حولك حين تحين نهايتك .. لن ترى سوى حسرتي عليك "
أطلت من عينه دمعة وجلة إلا أنه سارع يحوها عن ضميرة
المحتضر

رفع هامته

" فلتذهب مباركته إلى حيث تتلقفها اللعنات ، لم اعد

بحاجة إليه على كل حال "

أما هي

التي ما زال فقيرا إليها ناقصا إياها
التي دار دورته الكاملة حتى يستقر أمام دارها
ما زالت بعيدة .. بل صارت أبعد من ذي قبل
حتى حواراتها المشفقة معه قد رحل عهدها بلا عودة
الآن كل حواراتها و نظراتها و عباراتها لذلك الفتى اللقيط
حتى بعد كل ما أشاعه أمام الخلق عنه ظلت تراه كما هو
تبا لذلك الفتى الذي أتاه من حيث لا يحتسب
لم لم يمت بعد ؟

لم لم تقم تلك البلدة بقتله حتى الآن ؟

اللعنة عليك أيتها البلدة الغبية النائمة

أدار حقه ساقه على بيوت البلدة بيتا بيتا
يطرق كل باب ؛ يتسول الكره و يستجدي الشر و
الموت

و في داخله كانت تومض خاطرة متشفية " ما زلت
متسولا .. لم يتغير شيء "

فيزيده هذا حنقا و حقا

و يزداد استجداؤه إلحاحا

و كان أهل البلدة شديدي السخاء ، و الغباء أيضا

تجمعوا حوله تتردد في عقولهم الجوفاء أصداء نخوة زائفة

أحضر الجمع مشاعله و مضوا يقودهم الفتى متجاهلا خفة

ساقة و وهننها

متجاهلا ذلك الإحساس بأن الريح تخترقه اختراقا

صدره الذي بدى و كأنه امتلاً بالهواء عن آخره فلم يعد
يرغب في أنفاس أخرى
أدرك الفتى ماذا يحدث له
و زاده الهلع تعجلاً فمضى كأنه يسري مردداً في ذهنه عبارة
واحدة
" لن أفنى وحدي أبداً . "



عندما جلست جواره لم تنبس بنت شفة
لم تعرف ما تقول لأول مرة
ألجم أفكارها قلقها و حياؤها من أيها

استدار لها صادق

"إنتي على عهدي و وعدي و لم أحنث بقسمي"

سمعت الرجاء في كلماته و تمت لو أنها وساته مواساة تليق
بيقينها فيه إلا أنها أطرقت و أومأت قائلة في خفوت

"أعرف"

تشربت عيناه ملامحها و هو يسأل

"أأنت بخير؟"

أومأت ثانية و قد ألهب الخجل خديها

تطلع الفتى إلي أيها لأمًا

"أتراك أخبرتها عني ما يسوءها في؟"

لم يستطع الرجل أن يرد لومه بمثله فربت على كتفه و قال
" أنا و هي هنا معك يا ولدي .. ما زال وعد الخطبة لم يحل
.. إلا أن بقاءنا هنا الآن لا يعني شيئاً .. يجب أن نرحل من
هنا "

" إلى أين ؟ "

" أي مكان "

" و براءتها " و تجهم وجه صادق

قال الحاج الطيب

" براءتها عندي ، و لا سواي أولى بتصديقها ، و كان

أوجب لي أن أدرك ذلك سابقا ، لكنني معها و معك هنا

الآن ، أما أهل البلدة فليس لنا منهم شيئاً حتى نسعي لتبريئهم

لها .. "

" .. لكن .. "

تهمد الرجل و قال و هو يضغط على كف الفتى الذي يقف
حائرا

" أنا عائلتها .. و هي عائلتي و عائلتك فمن نريد بعد ؟ "

هي عائلتك

ترقرقت الكلمة حول فؤاد الفتى فزادته وجيبا

تطلع إلى الرجل آملا

" و أنت ؟ "

" عائلة ابنتي عائلتي "

و التمع الرضا في عين الفتى

حقا من نريد بعد !!؟

" حسنا .. لنرحل إذا "

لكن صوت وقع الأقدام المتعالي اقترابا أحبط همتهم
و من بعيد رأوا الجمع يخرج من فم الظلمة يحمل مشاعله و
يتقدمهم ابن الراعي
النيران و الليل

و صوت ابن الراعي يرتفع في خيلاء
" أترون؟! .. حتى الحاج الطيب _ أو من ظنناه طيبا _
متواطئ معهم . لقد مستهم لعنة الأرض و ألقى عليهم قلب
الساحر تعويذته و لا خلاص إلا بالموت و لا نجاة إلا بالقتل "
و هم بهم أهل القرية إلا أن الحاج الطيب تقدم صائحاً
" إني أصدق براءتهما و إنهما في حماي "

ساخرا قال ابن الراعي

" و من يابه لحماك الآن أيها الرجل و قد رأيناك هنا

معها؟! "

تقدم صادق قائلا في ثبات

" كذلك أنت و أهل البلدة جميعا الآن ؛ أفلم تحل عليكم

لعنة الساحر أيضا ؟ "

ارتج على ابن الراعي فتابع صادق قائلا

" لقد ظننتني مثلك يوما ما أيها الفتى . ظننت أنني خبيث

النفس قدر الخاطر كما أنت اليوم ، و لا ألوم نفسي على هذا

الآن بل إنني أفهمها .. لكن ما لم يستطعه فهمي هو أتم يا

أهل تلك البلدة . أليس هذا هو ابن الراعي الذي كان الكل

يحقره ، حتى أبيه متبرئ منه حتى الآن ، ثم أتم هؤلاء

تتبعونه .. إن ذلك الماء الذي لا أنفاس فيه لهو أرحب من

صدوركم و أرحم .. ذلك الماء الذي تظنونه ملعونا به نبض بينما
قلوبكم عفا عنها نبضها حتى تعفنت دماؤكم و تجمدت أرواحكم
.. تلك الأرض التي تلعنونها احتوت كلانا بينما لم يحتوي عقلكم

تاريخ ذلك الذي تسيرون خلفه اليوم كغنم أبيه و لا تاريخ
ذلك الحاج الطيب و ابنته .. أف لكم و من تتبعون بغير علم
فتدنسوا أطهركم و تغضوا الطرف عن دنس أحقركم "

حط الطير على رءوس الأشهاد و تطلع ابن الراعي إلى
الجمع فأدرك انه على شفا حفرة فصاح منفلا

" و من أنت لنصدقك ؟ إن صح ما تقول فيصح أيضا ما
قالته فيك أمك أليس كذلك ؟ هذا تاريخهم الذي دنست
أنت حاضره فما قولك في تاريخك أنت يا صاحب الحاضر
النقي ؟ "

علت همهمات القوم و ارتعد قلب الفتى و إن لم يبد على
وجهه كسرة روحة

احترقت أعين زهراء عليه لوعه و هي تنظر إليه عالمة ما
يعتمل داخله

إنه لا يستحق هذا

همت أن ترفع عن خطيها ما ألقى عليه ابن الراعي من
كذب و افتراء ، إلا أن صوتا من آخر الجمع صاح بهم
" إن الفتى البريء ، و المرأة ليست أمه .. و معي ما يثبت
براءة الفتى و صدق ما أقول "

كجسد واحد استدار الجمع إلى صاحب الصوت

ابتسم صادق لصاحبه فخرا

و ازدادت خفقات الماء اضطرابا

و على ضوء المشاعل ترقرت ملامح بائع البذور



الفصل التاسع

أرجع زمان الأمس من صفحاتي

"بكر موسى هارون"

I

لشهر كامل لم يرى عازف أحدا ولم يره احد
فقط تطل عليه تلك العيون الزجاجية الرقراقة فينظر لها
دامعا دمعاً من تراب ، معتذرا اعتذاراً من القلب ، مبتسماً في
اسف وحنين

شهر كامل والألم يزداد وجسده يتصلب يوماً عن يوم
واللعنة تزداد إحكاماً وعمله يزداد مشقة وعزمه يزداد اشتعالاً

لم يكن هناك وقت للكلل فالعين الزجاجية تترقق أمامه
،وابتسامة رخيم اللائمة تلازم مخيلته ،والألم يحثه على المواصلة
الكواكب السيارة في أوردته تتوقف فيصطدم بعضها ببعض
فينفجر الألم في قدمه فيقع أرضاً ثم يقف من جديد
تأبى عضلة ما إلا أن تنصاع للعنته فتقع أدواته التي يعمل بها
من يده فلا يكن منه إلا ان يتناولها من جديد ويستأنف ما
بدأه

شهر على هذا الحال حتى اكتمل ما أراد فعله وبقي منه ما
يوازي موضع لبنه

يجب على ولده أن يفهم

يجب أن يدرك سر ما صنع

أما هؤلاء الذين احاطوه نفاقاً ورياء لا يجب أن يعرفوا..

لكن الوقت كان في نزع الأخير ولعنته توشك على

الاكتمال

لم تعد يده تقدر على أن تمسك قلمًا وتكتب ،وصوته
استحال حصة تحتك بأخرى ولا أحد حوله يستدعي له ابنه
فلم يعد قادرا على الحركة

يجب أن تصل الرسالة كاملة إلى ابنه

يجب أن يفهم

هو فقط من يستحق الفهم

هو الخل الذي كان لها وفي وعلى صاحب النجوم مشفق

ولان لم يستطع أن يعيد قيثاره إلى صاحبها فهو الأقدر

والأولى بالحديث عنها وبها ولها

ما الحل الان؟

تلك السكين ستفي بالغرض

وبيد شبه متحجرة قبض على سكينه كالقابض على الجمر

وبذراع تئن كألف شيطان يشتعلون في جهنم كتب

ونزفت الكلمات رمادا

كل كلمة نحتت من صخر صدره تقطر دما في نفسه

وتسيل رمالا على جسده النصف بشري نصف حجري

لم يكن هناك صفحة أوسع من صدره ولا مداد إلا دمه ولا

قلم إلا سكينه ولا وقت إلا الآن

وداعا عازف

لشد ما كنت بائسا أحمقا

لشد ما كنت ناكرا متكبرا

ولشد ما أصبحت إنسانا فقط عندما صرت صخرًا
فلتشرق الشمس عليك كما أشرقت عليها أول يوم
فلتبحث عن خل لك وفي وعليك مشفق ربما تكون أوفر
حظا منها

ستظل حجرا لكنه سيظل معك .. لن يفعل ما فعلت أنت
معها

فلتشرق الشمس عندما يدرك ابنك أنك أتممت عمالك
وليتوافد البشر على بيتك بحثا عنك وليفتحوا حجرتك
ليروا عجيبة لم يألّفوها

ذلك التمثال لمرأة حسناء كأشد ما يكون الحسن ترفع
ذراعا وتخفض الآخر وتشد الأوتار بين ذراعيها متى اشتراه
السيد حصة؟!؟!!

لا أحد يعرف

تلك الصخرة السوداء الملساء بجوار التمثال من أتى بها

هنا؟!!

لا أحد يعرف

أين السيد حصة؟!!

لا أحد يعرف

حتى أتى رخيم وقرأ ما نحت على الصخرة

"قيثارة.."

صوتها كقطرات المطر الرقيق على نافذة طفل..

تلك التي تلمسها فتثرت.."

وفهم رخيم وحده دوننا عن الجميع

اقترب رخيم من التمثال ولا مست يده أوتار يدها فإذا
بصوت عذب يخرج منها

كلما لمس وترا صدر عنه صوتا آخر

وكأنه كان يعرف منذ الأزل كيف يخاطب تلك المرأة

وكأن أوتار يدها هي أوتار صوته

صار رخيم يتحدث بأوتارها

وما أجمله من صوت!!

واجتمع الخلق تنهاوى قلوبهم على قصر السيد حصة سابقا

تهتز أوتار قلوبهم على رقصات أوتار تلك المرأة .. القيثارة

وأصبح رخيم الأشهر والأغنى والأكثر محبة بين البشر

كلهم يأتيه مشتاقا لصوته وصوتها .. كلهم يريدونه ويريدونها ..

كلهم ينتشي من صوته المنبعث من أوتارها

كل هذا وشفقتا رخيماً لا تزالان متعانقتان على الصمت
لم يسأله أحد أي لحن أحب إليه ، أو أي وتر أعذب صوتاً
من الآخر

ولو سئل لأجاب أن أحب صوت سمعه كان احتكاك
حصاتين يخرج من صخرة سوداء ملساء يقول هادئاً
"أهلاً رخيماً .. أنا عازف "



II

"أبي "

همس بها صادق مشدوها

و دارت أعين ابن الراعي في محجريها رعبا

لا يمكن أن يحدث هذا الآن

إن كل شيء يتداعى

حتى هو

يجب أن يفعل شيئا

مسرعا صاح

" و من معك يا بائع البذور؟ هذا السكير حقير الشأن!!"

برزت ابتسامة بائع البذور الماكرة المألوفة لدى صادق و

قال

" و من سيعرفه سواك و أنت من أحضرت زوجته إلى

هنا لتلقي زورها على عاتق صاحبي ثم تقتلها؟"

أدار بائع البذور عينه في الجمع المذهول ثم قال

" ليذهب بعضكم إلى بيته و يرى بنفسه "

انطلق البعض إلى بيت ابن الراعي بينما تابع خليل

" و ليس هو وحده من أحضرت ... لقد احضرته و

أحضرت من يؤمن على صدقه "

سأل سائل

" و من يكون؟ "

ارتفعت شهقات القوم و هم يتابعون صاحب النجوم و من

معه يتقدمون

" إنه الفتى رخيم !! "

" ماذا يفعل هنا؟!؟! "

" ما شأنه بكل هذا ؟؟! "

صاح ابن الراعي ساخرا

" ءأحضرت أخرسا ليشهد معك ؟ "

قال صاحب النجوم ثابتا

" أنا أفهم عنه .. و سأنقل لكم ما يريد هو إخباركم "

" و من سيصدق صاحب النجوم هنا "

" أنت "

و اتسعت ابتسامة الرجل متابعا

" ما ترتديه و ما جيبك يحويه هو منحتي إليك عندما

لجئت انت إلي ؛ فإن كذبوني جميعا فكيف ستكذبني أنت ؟

.. إن كنت أنت صادقا فأنا أولى بالتصديق و إن كذبت أنت

فذاك شهادة أكبر لي بالصدق "

لم ينطق ابن الراعي فلم يعد يجد في داخله ما يدفع به قولهم
و ذلك الوهن في أطرافه و الخواء الذي يتسع في جوفه
زاده عجزا على عجز

و سط كل هذا كانت حيرة صادق تتلاطم داخل جنبات
عقله المصدوم

" لكن .. أبي !! .. ماذا يملك هذا الرجل ليدافع به
عني؟! "

و قد كان ذلك الرجل مطئطئ الرأس طول الوقت قد
تجمعت كتفاه حول عنقه رهبة و خوفا

لما سمع سؤال الفتى رفع عينيه في لمحة خاطفة يرنو إلى
صادق ثم رفع وجهه امام الناس و قال بصوت مرتجف

" إن الفتى ليس لقيطا .. إنه ابني حقا ، لكنه ليس ابن
تلك المرأة التي كانت هنا .. أنا أبوه .. أنا أبو صادق و إنه
لبريء مما يدعون .. إن ابني لم يرتكب ذاك الجرم .. أنا من
ارتكبه ؛ أنا من فعل بالفتاة ما فعلت و ألقيت تهمتي على ابني
كما كنت أفعل دوما .. إن صادق برئ .. إن ابني بريء "

و لم ينطق صادق

لم يجد على لسانه كلمات

حتى عقله خلا من الفكر

تجمد جسده و ظل ينظر إلى الرجل الهزيل الرث غير

مصدق ..

لم يقطع الصمت الذي خيم على الجميع إلا سؤال الحاج

الطيب

" و لكن ما شأن السيد رحيم في كل هذا ؟"
نظر أبو صادق إلى ابنه و قال موجها إليه كلمات أغرقها
الذنب

" إنه ابن أخيك "



" يا أبا صادق .. يا أبا صادق .. لقد وضعت امرأتك "
عندما دخل الرجل بيته كانت زوجته قد انتهى مخاضها إلى
رضيع صغير حسن الطلعة
" أخترت له اسما ؟ "

قالت المرأة المنهكة فتطلع الرجل إلى الرضيع قليلا ثم قال

" عازف .. اسمه عازف "

ثلاثة أعوام مضت

ثلاثة أعوام و صياح الطفل و حديثه و ضحكاته تضج

مضجع أبيه

لم يعد الرجل يطيق هذا الصوت الملعون

أي صوت هذا ؟!

أمسوس هو ذلك الطفل ؟!

لم يعد يداعبه و لم يطيق أن يجمله يوما

كل من في سنه من صغار أهل البلدة قد بات ألسنتهم

تتلمس طريق الكلام إلا هو .. لا يخرج منه صوت إلا ذلك

الصوت الشبيه باحتكاك حصاتين ، صوت بغيض شنيع

" لقد طفح كيلي .. هذه فعلتك أنت ؛ لقد أصبته بمس

أيتها المرأة الشؤم "

" أتعي ما تقول يا رجل ؟! أيقول أب عن ابنه قولاً

مذموماً كهذا ؟ ثم إنني من أنجبت صادقاً من قبل فلم لم يحل

به ما لم يحل بأخيه ؟ "

" صه أيتها الشؤم .. أتريدين أن تلعني ابني كما حلت

لعنتك على ذاك الممسوس ، إنه ليس ابني و أنت لست

زوجتي بعد اليوم "

" فارحل إذا و دعنا و شأننا .. إننا لم نر منك خيراً يوماً

على كل حال أيها السكير عديم النفع "

" حسناً إذا "

حمل الرجل ابنه البكر ذي السنوات الأربع و أسرع خارجا
يدفع المرأة التي تشبثت بطفلها ملتاعة

" دع ابني .. ارحل وحدك "

" ابتعدي أيتها الشؤم "

دفعها الرجل في غلظة لترتطم رأسها بالأرض و يسجن

إرادتها الدوار

و تمت المرأة لو أنها قد فقدت وعيها على أن ترى ابنها

محمولا بعيدا عنها للأبد

ظلت عاما كاملا تخرج كل صباح حاملة صغيرها على كتفها

تبحث عن ابنها البكر دون جدوى

طرقت كل باب ، و أوصت كل مسافر أن يأتيها بخبر ، و
سألت كل عائد من سفره عن خبر يحمل ما يبرد نار لوعتها
على ابنها

و لم يعرف أحد مصيره

ضمت ابنها و همها إلى صدرها و عادت إلى دارها يلتمها
الحزن على ابنها المفقود

لم يعد بيدها شيء إلا أن ترعى صغيرها الذي أضحى محل
سخرية القوم و محط نظراتهم المتشككة
" حصاة " هذا ما كانوا يدعونه

و لم يعد بيدها حيلة إلا أن تدفع عن ذلك الصغير شرور
من حوله

بينما استقر الرجل و ابنه في بلدة بعيدة على الطرف الآخر
من النهر حيث لا تستطيع تلك المرأة الشؤم و لا ابنها
الممسوس أن يصلا إليهما

و قد نفذ الخمر من متاعه و صار عقله يصرخ مطالبا بما
يغيبه

كان يائسا

و في غمرة يأسه و انسحاب الخمر عن وعيه المفقود قابل
تلك المرأة

كان يحتاج إلى مالها

و كانت تحتاج إلى ابنه

من سيتسول لها و يحضر لها أموالا سهلة أفضل من

طفل رقيق ضعيف مثله

و عدته أن تزیده من سمه و وعدھا بالصمت
و كان مهرھا أن یصیر "صادق" لقيطا



كاد الهواء أن ینفذ فی شهقات القوم و نههاتهم
و علی وجوههم تنوعت المشاعر
فمنهم المشفق علی صادق
و منهم النادم علی اتهام الفتی زورا
و الغاضب من ذلك الأب المأفون
و صادق فی بعد عن كل ما یدور حوله
نظرته مثبتة علی ذلك الذي یدعی الآن أنه أبوه حقا

أحس عقله أنه تحمل ما لا يطيق
و مثل أمه تمنى لو أنه خر مغشيا عليه
ألف سؤال يدورون حوله يتداخلون و ينفصلون في رقصة
ماجنة لم ينتج عنها جواب واحد
كيف استطاع ؟
أين أمي الآن ؟
لم ليست معهم ؟
أتراها... ؟
لكن لم الآن ؟
لم يقول كل هذا الآن ؟
ماذا يريد و ماذا يتوقع ؟

هل أنا غاضب ، أم حزين ، أم سعيد ؟

أي شعور أولى و أي فكرة أهم و أي سؤال أخرى

بالإجابة ؟

و قبل أن تتوقف تلك الرقصة المجنونة في عقله عاد به وعية

إلى صوت بائع البذور يقول

" الآن و قد ظهرت براءة صاحبي ؛ عليكم يا أهل البلدة

الاعتذار منه و الشهادة بطهره و طهر مخطوبته و أيها .. أما

ابن الراعي ذاك فلا مقام له بيننا و ليرحل و معه ما احتمل

من كنوز رخيصة فلا محل له أو لها في أرضنا "

أدار ابن الراعي ناظريه فيمن حوله و علم أنه الآن أصبح

وحده

لن ينصره الآن أحد

لن يجود عليه أحد و لو بلمحة مشفقة

لقد أتم نبذه من الخلق كلهم

أوماً مطرقاً و قال

"حسنا .. لقد صدقتم الغريب على ابن بلدتكم .. و الآن

جميعكم يتبرأ مني .. كل الذين كانوا يتزلفوني بالأمس الآن

يغسلون أيديهم البريئة من دنس ابن الراعي أليس كذلك؟

تريدون مني الرحيل ، و إني راحل "

كانت قدماه ترتعدان الآن و قد تفككت اوصاله بالكامل

لقد اقتربت النهاية جدا و لم يعد لديه وقت حتى ليرحل كما

يريدون هؤلاء الحمقى

لكنه قد اتخذ مع نفسه عهداً و لن يخلف عهده مع نفسه

أبداً

لم يعد يملك غيرها على أي حال

" لن أفنى وحدي أبدا "

هكذا وعد نفسه

و لسوف يوفي وعده أو يموت عليه

جمع كل ما تبقى من طاقة في جسدة و دون أن يدرك أحد

ما يحدث انطلق نحو صادق يدفعه في صدره إلى النهر

سقط صادق

و ارتفع صراخ زهراء يجبسها أبوها عن السقوط وراءه

و فار الماء عاليا يلامس أطراف السحاب



ليل فقط

لا قمر و لا نجوم

و في عتمته اختبأت دمعات الساحر المتروحة

تنزلق من خديه إلى صفحة الماء التي طلاها الليل بطلائه

الدامس

لقد رآها تغرق

رآه و هو يلقيها في النهر و لم يفعل شيئاً

اعتصر موضع قلبه بيده و قد أحس أن الألم هذا لن يزول

إلا بموته

منذ أن حولها إلى صخرة صماء و ألقاها على قارعة الطريق

في تلك البلدة و ذلك الألم قد احتل وتينه يمزقه كل حين و

آخر دون رحمه

علم ساعتها أن لعنته لم تكن لعنة عليها بقدر ما كانت لعنة
عليه هو

و لذا ظل يراقبها متمنيا أن تنكسر لعنته عنها فيستريح و
يتحرر قلبه من ذلك الألم الغاشم

و خلال تلك السني استحال تعلقه بها و غضبه من
خسرانها شيئاً آخر

و لم يعرف كيف حدث هذا و لا متى
لقد كانت صخره في نظر الجميع لكنه كان يراها كما رآها أول
مرة

و كلما وجدها ملقاة مهملة في ركن من أركان قصر ذلك
الوغد الذي أخذها زاد ألمه اعتصاراً لفؤاده

و أدرك أنها لم تعد مجرد مقتنا فاخرا يريد أن يحوزه بعد
الآن ؛بل أصبحت أهم و أكبر
و هاهو الألم قد سيطر على قلبه سيطرة تامة
تطلع إلى صفحة الماء المتشحة بثوب الحداد على الصخرة
الفقيدة و ارتاح لفكرة موته
إلا أنه لن يرتضي لها تلك النهاية
تضاربت مشاعره بين الأثرة التي طبع عليها و الإيثار الذي
زرعته هي فيه حديثا
فهو لا يريد لها أن تفنى
و لا يريد لها أن تعود إلى صاحب النجوم
و هو يعلم جيدا أنها لن تكون له أبدا
فأيهم أولى لديه

أمسك الألم بعنق نبضاته يتنزع منها الحياة و أدرك بين
نشيجة و صرخاته المحبوسة داخل اختناق أنفاسه أنها أولى
إنها أنقى من أن تفتى هكذا و أرق من أن يبتلعها الماء
و أظهر منه و من صاحب النجوم هذا
لكنها لن تعود إلى صاحب النجوم أمام ناظره أيضا
مد إصبعه في الماء يرسم على صفحته دوائر سترتها الظلمة
عن أعين الوجود
و بين شهقاته الأخيرة همس الساحر آخر تعاويذه
"من قلب الصدق تتنفس الحياة و من بذرة التوبة تزهر
البراءة

أيتها المياة التي دنسها الغدر و أرق صفحتها الظلم و دفن
أسفلها الطهر؛ انبضي بالحياة و ارتفعي و ارفعي عنها لعنتها
؛عندما يغتسل فيك قلب صادق "



عندما امتزجت فضة الفجر الموشاة بذهب الشروق العائد
مع لؤلؤ الماء المتناثر من نوافره المتصاعدة تشق السماء كان
المشهد خارج نطاق الكون
اتسعت أحداق الخلق ترقب عامود الماء الذي انشق عنه
النهر ليرتفع إلى عنان السماء حاملا معه جسد الفتى
لم يعرف القوم أهو الانهار أم الرعب أم العجب ذلك
الذي سمرهم في أماكنهم لكن مهابة المشهد كانت مهيمنة

و قبل أن يفيق القوم من صدمتهم الأولى اندفع الماء ثانية
لأعلى يغلي غليانا باردا

و على قمته كانت تقف هي

تماما كما اعتاد أن يراها

ضحكتها البلورية

عينها الرقراقة كرقصة الماء الرائق في جدول صغير مقصور

في دغله لم يطمثه بشر من قبل

و اندفعت العبرات من عيني صاحب النجوم

لم يعد يجري

كان يحلق

تتابعه هي و هو يندفع بين الجموع ناحيتها ملهوها

في نعومة أنزلها الماء على ضفة النهر حيث توقف صاحب
النجوم متسارع الأنفاس مبهورها

" قيث .. قيثارة .. إنه .. إنك "

تقطعت أنفاسه غير مستوعب أنها حقا تقف أمامه و

تبتسم

تلك الابتسامة التي كانت تزيح الغيوم عن السماء هاهي

الآن تزيح عن صدره غيوم المرارة و القنوط

أمسكت قيثارة بيده و قالت بصوتها الذي يشبه قطرات

المطر الرقيق على نافذة بلورية

" " بدر " أنا هنا حقا .. أنا هنا "

و بينما تعالى نشيجه بين كفيها كانت زهراء تغرق كتف

صا دق دمعاً

" لقد عدت .. الماء .. لقد ظننتك .. "

" لا تبكي .. "

" صادق .. "

" أعلم .. أعلم يا عطر أبيكي "

امتزج و مبيض السعادة بلمعة الجخل على وجنتيها
فاستدارت تداري وجهها في عنق أبيها الذي ربت على رأسها
و هو يحدج صادق بنظرة محذرة احمرت لها أذن الفتى حرجا

و أقبل أهل البلدة عليهم بين معتذر و مهني

أقبلوا على صاحب النجوم و فتاته يتساءلون

و أحاطوا بصادق و عائلته يباركون

لم يعد أحد ينتبه لابن الراعي

لم يلتفت له أحد

لم يرى أحد أطرافه و هي تتفتت كالرماد و تتناثر في الهواء

جسده ازداد خفه فلم يعد يقوى على الثبات على الأرض

و كأن الجاذبية قد لفظته هي الأخرى

و تلاشت أنفاسه في هواء الفجر

كان يعلم أن هذا سيحدث

و كان يظن - كما ظن من قبله - أنه سيقدر على لعنته

و أنه سيتجنبها

لكن خبيث سريره طغى عليه فأتم عليه لعنة صاحب

النجوم

" لك ما أردت و أمثاله ؛ فارحل فإن بيتك صار قصرك و
تراب أرضك أموالا و لا أحد إلا و يرغبك . اليوم لك و غدا
مصيره معقود عليك فاعلم و احفظ جيدا ما أقول

ألا تكذبين و لا تفتري فإن الكذوب لشر الرجال

و إن لم تعي ما انتصحت به فكن في الرياح كذر الرمال "

و مثل من مستهم لعنة الرجل قبله لم يدرك من اللعنة إلا

أولها

و هاهو يتلاشى كحبات رمل نثرها أحدهم في وجه الريح

و كان آخر شيء رآه ابن الراعي قبل أن تذروه الرياح هي

الحسرة في عين أبيه الدامعة .



الخاتمة

فالوصل أجمله ما كان بعد نوى
والشمس بعد الدجى أشهى لرائبها
"إيليا أبو ماضي"

النيران و الليل

ذلك الثنائي الذي قد يحوي الغضب و الشر

و قد يحوي الوحشة و الخوف

و قد يحوي السمر و الألفة

و لقد اختبر صادق الغضب و الشر ، و اختبر الوحشة و

الخوف

و الآن هاهو يختبر السم و الألفه

عندما جلس على ذلك الكرسي الموشى المنمّم كانت
ابتسامته هي أكثر زينته إبهارا و تألقا

تأمل تلك المشاعل المتراصة على جانبي القاعة التي يجلس
على رأسها و قد أضحت نيرانها نورا و حرارة لهيبها دفئا

اتسعت ابتسامته و هو يرنو إلى ابن أخيه و من يجاوره
عائلته .. صاحبه .. أهله

الآن أضحي كسائر البشر

لم يعد لقيطا مذموما

لم يعد فقيرا محروما

لم يزدد مالا و لا جاها لكن نفسه امتلأت حبا و أنسا و

رضا

أغمض عينيه يسترجع أول لقاء له بأخيه و ندت عنه ضحكة
خافته

كيف يدعي أنه كسائر البشر و أخيه صخرة ؟!!
تذكر كيف انتفض فزعا عندما أمسك رخيم يده و وضعها
على تلك الصخرة السوداء فسرى في جسده ذلك الصوت

" صادق ؟ .. أخي ؟!!"

" أنت .. أنت صخرة !!!"

لم يعرف كيف أدرك أن الصخرة تضحك لكنه كان قد أدرك
أنه لا يجب عليه أن يستغرب شيئا

" لم أكن دوما صخرة .. و من يدري ؟ ربما أعود يوما ما ..

أخبرني رخيم أنك تبدو وسيما "

تبسم صادق

" أخبرني وسيم أنك كنت وسيا "

" و ما زلت ؛ إني أجمل الصخور و أغناها و أرفعها شأنًا

.. رأيت صخرة تملك قصرا من قبل ؟ "

عندما كان يتخيل صادق _ و هو بعد في بلدته الأولى _

أن له بيتا و أخوة يتضحكون سويا ، لم يدر في مخيلته أبدا

أن أول ضحكاته مع أخيه ستكون هكذا

و للعجب زاده هذا ضحكا

ارتجفت أصوات الاحتكاك قليلا حين سأل عازف

" أعادت قيثارة حقا ؟ "

" أجل "

" أسعيدة هي ؟ "

" إن البسمة لا تفارق ثغرها لا هي و لا بدر "

خفت الاحتكاك قليلا

" هذا خبر حسن .. أتراها ستسامحني يوما ما ؟ "

تهمد صادق و سرى صوته مواسيا حبيبات الصخرة

السوداء

" من يدري ؟ لا تبدو ممن يحملون الضغائن .. و ربما ما

فعلته مع رخيم يشفع لك عندها "

" ربما "

و لم تعد أحاديثهما تنقطع

حكى له عازف فتنته بزوجته أم رخيم

كيف كان افتتانه به بداية انحداره

و كيف هي الآن لا تعني له شيئا و لولا أنها منحته رخيم

لكان لفظها من حياته بالكامل

تذكر صادق كيف ضحك عازف و هو يقول له هذا

" إنها الآن في قصري ترعى لا تبالي بشئ و لا تأسى على
أحد .. لم تحاول أن تحدثني يوما بعد ما حل بي كأنها سعدت
بذلك و هئندا أقول أنتي من يريد أن يلفظها من حياتي "

حكى له صادق كل شيء عنه

عن أمه الكريمة و أبوه السكير

حكى له كيف كان يعامله الخلق قبل أن يحط رحالة في تلك

البلدة الساذج أهلها

و سأل أخيه عن أمهما فأخبره عازف كيف كانت هي

كيف بحثت عنه حتى تهدجت قدمها

كيف جاهدت في حمايته هو من سخرية الناس و قسوتهم

كيف لم يدرك موتها حتى و هو بجانبها

و لم يتعجب صادق من بكاء صخرة ضحكت من قبل
عندما تساقطت دموعه على صفحة أخية الملساء سمع نهبة
أخية تسري في روحه تبكي معه فراقها و غرابة تلاقئها
حكى له صادق كل شيء عن زهراء و كيف كانت هي من
أدار دفة سفينته الشاردة نحو شاطئها الآمن
و برغم كونه الأخ الأصغر أوصاه بها إيحاء خير متخذه مثلا
لنقض العهد و خيانة الوعود
لم يمل أيهما حديث الآخر
كثيرا يمر عليهم صاحب النجوم فيجدهما و رخييم مستغرقين
في حوار بلا صوت
و كان يجالسهم أحيانا

و بينه و بين عازف دار حوارا من القلب اعتذر فيه عازف
اعتذارا كاد أن يفتته و علم صاحب النجوم أن لو كان عازف
في صورته الأولى لكان يبكي دما الآن

لقد سامحه على كل حال

قيثارته عادت إليه سالمة سعيدة تملأ أكوانه نورا

فليسامح الرجل إذا احتفالا بها

وعده أنه سيرفع عنه لعنته حين تسامحه قيثاره

و بشره أن ذلك ليس ببعيد

إن زوجته الغالية تحوي قلبا لا يسع كرها أو خصومة

أما عازف فلم يكن يتطلع إلى شيء إلا غفرانها

لقد تعلم الدرس و أضحى عازفا عن البشر حقا كما أخبرته

هي أول مرة

إن عازف اسمه الذي اختارته هي له و ليس ذلك الرجل
الذي هجره طفلا

و لولا شوقه لابنه و لرؤية أخيه ما تمنى العودة

لكنه راض و لا يطمع في غير ما يملك

و اليوم أخيه سينال الشيء المحيد الذي طمح إليه

ارتجف قلب صادق و هو يستمع إلى صيحات النساء

المحتفلة و هي تقترب من القاعة يتقدمهم الحاج الطيب و بين

يديه يحوي يدي مخطوبته

ارتفعت صيحات التهئة من الجميع و تعالى صياح بائع

البدور هاتفا لصاحبه بالبركات ناثرا الزهور عليه و على

عروسه

عندما أجلسوها جواره كان قاب قوسين أو أدنى من أن
يجذبها من يدها و يرحل بها إلى منزله .. منزلها بعيدا عن كل
هؤلاء

لكن نظرة أيها الدامعة و ابتسامته صاحبه الماكرة ثبتته في
مجلسه

ظل يراقبها متحينا اللحظة التي تتخلى فيها عن إطراقها إلا
أنها لم تأت

امتدت يده إليها بزهرة حمراء وهاجت اللون فالتفتت لها تشتم
رحيقها و قد اتسعت ابتسامتها رافعة عينيها إليه أخيرا تسأله

" أسفل شرفتي ؟ "

تبسم لها منتشيا

" لقد أزهرت "

و بجوارهما علا غناء قيثارة متناغما مع عزف رخيم على
قيثارته في حين تمايل الحضور طربا يرددون معها تتباعد
أصواتهم مع كل خطوة يتخذها الراعي مبتعدا عن الجمع اللاهي
تجمعت غيوم الدمع حول أنظاره المكلومة تحجب عنه أشعة
القمر المواسية و هو يرنوهم عن بعد يستعيد نظرات ابنه
الأخيرة التي حوت كل الفزع و كل الرعب و الاستنجاد
وضع كفه على فمه يكتم نشيجا لن يستمع له أحد أسفا على
وحيدة الذي طالما تمنى أن يئوي إليه بدلا عن جشعه لكنه
أبي إلا أن يعتصم بهذا الجشع حتى لم يعد له عاصم من لعنته و
حال بينهما الكبر فكان من الفانين
التمعت على خده دمه تقبلتها النجوم صاحبة لهن قبل أن
يمحوها الرجل متهدا مستلسا

لا لوم اليوم على أحد يلقيه أو دين يدينه لأحد ليبقى حتى
سداده .. و من سيواسيه في فقدان لولاه ما كان هناك
عرس اليوم

استنشق هواء الليل المعبق برحيق مزج من شجن الوداع
و سلام التقبل و بهجة الأمل .

ألقي على العرس سلاما أخيرا صامتا و لوح بعصاه يهش بها
على غنمه

و استدار مهاجرا



تمت بحمد الله